أنور الجندي

قصة "محمود تيمور"

الناشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى — القاهرة — ١٩٥١

تتــويج

— ١ —

جائزة « مجمع فؤاد الأول للغة العربية »

قرر مجمع « فؤاد الأول للغة العربية » تتويج جميع الإنتاج القصصي باللغة الفصيحة «لمحمود تيمور بك» ، ومنحه جائزة القصة لسنة ١٩٤٧ ، وقد أعلن المجمع قراره فى حفل أقامه يوم ٥ إبريل سنة ١٩٤٧ بدار «الجمعية الجغرافية» .

— ٢ —

جائزة الملك « فؤاد الأول »

فاز « محمود تيمور بك » بجائزة الملك «فؤاد الأول» للآداب لسنة ١٩٥٠ عن كتابيه : « كل عام وأنتم بخير » ، و « إحسان لله » . وأعلن ذلك فى تقرير لمعالى وزير المعارف العمومية أُلقى فى الاحتفال الذى أقيم « بجامعة فؤاد الأول » فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٥١ .

— ٣ —

جائزة « واصف غالى باشا »

قررت هيئة التحكيم فى جمعية « فرنسا — مصر » بباريس برياسة الأستاذ « جان مارى كارى » أن تمنح جائزة « واصف غالى باشا » لسنة ١٩٥١ لكتاب « عزرائيل القرية وقصص أخرى » ، وهو مجموعة من القصص كتبها « محمود تيمور بك وتُرْجمت إلى الفرنسية، ونشرت فى « باريس » .

« . . . وأما لجنة الآداب فقد تجمع لها فى هـذا العام محصول وفير من إنتاج أدبائنا الممتازين ، وقد فحصت اللجنة ما يقرب من الستين أثراً من الآثار الأدبية القيمة ، وكان لدى هذه اللجنة جائزة مستبقاة من العام الماضى ، رأت أن تمنحها إلى جانب جائزة هذا العام ... وأما الجائزة المستبقاة من العام الماضى فقد رأت أن تختص بها كاملة أديباً من أدبائنا المجددين ، هو حضرة صاحب العزة الأستاذ « محمود تيمور بك » وهو كاتب اشتهر بالتوفر على الإنتاج فى ميدان القصص القصير خلال عشرين عاما أو تزيد ، حتى وصل إلى مرتبة رفيعة فى الأدب ، ومكانة مرموقة بين الكتاب المجددين . وقد رأت اللجنة أن تمنحه الجائزة كاملة عن كتابيه الأخيرين : « كل عام وأنتم بخير » و « إحسان لله » وهما أحدث ثمرات هذا الكاتب المجيد ، ويمتازان ببراعة التصوير ، ودقة الوصف ، وجمال الأسلوب ... »

[من كلمة معالى وزير المعارف العمومية فى الاحتفال الذى أقيم « بجامعة فؤاد الأول » فى ٢٨ إبريل ١٩٥١ لتوزيع جوائز « فؤاد الأول » .]

أرستقراطي فلاح

[فصل من كتاب ألفه المستشرق الروسى
الأستاذ أغناطيوس كراتشكوفسكى]

فى محطة صغيرة من محطات الضواحى[1] ، وقفت أنتظر القطار ، لأعود أدراجى إلى القاهرة . كانت رحلتى القصيرة عقيمة الجدوى . فقد أردت التعرف إلى خزانة كتب « تيمور باشا » ، تلك الخزانة التى سمعت عنها شتى الأحاديث الطريفة ، والأخبار المشوقة . قيل لى فيما قيل : إن رب الدار لا يضن بمخطوطاته النادرة ، على الثقات من أهل العلم ، فيدنى منالها منهم عن طيب خاطر . كانت الخزانة محفوظة فى داره القريبة من المحطة . فذات صباح ، وقد أزف موعد ترحالى من القاهرة ، أزمعت الذهاب لزيارة الخزانة .

كان رب الدار لسوء الحظ غائباً فى مكان ما من الوجه القبلى ، ولا ينتظر له عود من سفره قبل أسبوع . استقبلنى بواب وقور ، وقدم لى قدح القهوة ، وهو رمز التحية التقليدية ، ثم أظهر استعداده لمصاحبتى فى زيارة جميع غرف الدار . بيد أن خزانة الكتب ، وهى بيت القصيد ، كانت مغلقة . قضيت برهة أتجاذب أطراف الحديث مع البواب ، بطبيعة الحال فى الموضوعات السياسية . وأخيراً تركت بطاقتى ، راجياً تقديمها إلى « الباشا » عند أوبته ، ثم يممت شطر المحطة .

(١) يقصد محطة عين شمس (خط المطرية) حيث كانت دار المرحوم « أحمد تيمور باشا » — (المترجم) .

فاتنى القطار منذ لحظات ، فلم يسعنى إلا انتظار الذى يليه . كنت وحيداً فريداً على الإفريز ، عدا ماسح أحذية ، يروح ويغدو . وماسح الأحذية هذا ، هو أحد أفراد جيش جرار من أمثاله، الذين يرتدون القمصان الزرق على أجسامهم العارية فى الغالب ، ويطوفون فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ويطلعون عليك أحيانا على حين غرة من حيث لا تنتظر ، ويلمون إلماما عجيبا بجميع ما يحدث حولهم من الأمور[1] .

ما كاد ينتهى من مهمته ، ويشرع فى تنسيق زجاجاته المغبرة ، حتى استأنفنا الحديث، ريثما يجىء القطار ليقلنى إلى « القاهرة »، وريثما يفتح الله عليه بعميل جديد . كان الفتى ، على ما يخيل لى ، عارفاً بماجريات الحوادث . فأخذ يسألنى عن الغرض من رحلتى . وإذ سمع اسم « تيمور باشا » ظهرت عليه فجأة علائم التحمس وقال: « أنا أعرف. إنه يقضى طوال العام هنا . إنه يقرأ جميع الكتب فلديه منها ما لا يوجد حتى فى « القاهرة » . بل إن شيوخ الأزهر الشريف أنفسهم يترددون عليه . أعرف أولاده ! إنهم فلاحون بمعنى الكلمة » .

فسألته غير متمالك دهشتى : « كيف ذلك ؟ »

— «طبعا ! إنهم لا يجيئون هنا إلا فى الصيف . أما الآن ، فهم يتعلمون فى العاصمة . فإذا ما جاءوا بادروا إلى جدّى . إن جدى خفير فرن القرية . أتعرف الفرن ؟ إليه يفد جميع فلاحى القرية لإنضاج خبزهم . وإذا لم يجد أبناء الباشا أحداً فى الفرن ، طلبوا إلى جدى أن يروى لهم بعض القصص . وإذا اجتمعت نساء القرية ، اللائى يحملن العجين لخبزه ، أحاطوا بهن كالهالة لسماع

(١) الكاتب يصف ماشهده قبل الحرب العالمية الأولى — (المترجم)

أناشيدهن الريفية . إنهـا تروق فى نظرهم ، وتجلب السرور إلى نفوسهم ، فيجلسون هادئين كأن على رؤوسهم الطير . وجميع الفلاحات يقدمن إليهم فطيرا طريّا ، كما يفعلن عادة مع أولادهن . وإذا ماجاء وقت الأصيل ، والتأم الأولاد فى الجرن للعب الكرة ، أقبل أبناء الباشا إليهم ، واشتركوا معهم ، ضاحكين ، صائحين ، مسرورين » .

واستطرد الفتى قائلا ، بلهجة حاسمة ، وقد أشرق محيّاه فخرا وإعجابا : « حقا ، إنهم فلاحون ! » .

وبعد أن أشبع الفتى رغبته الجامحة فى الإفضاء إلىّ بما عنده ، وبعد أن عرف الغرض من قدومى، سألنى : «لم لا أعود ثانية ، لزيارة الباشا بعد أوبته ؟»

فقلت له : « لقد حان موعد قفولى ، إلى بلادى ، روسيا . فإننى روسى ».

نظر إلىّ الفتى نظرة جدية ، ثم لم يتمالك أن ردد ضحكة عالية قائلا :

« كلا ! هـــذا المزاح لا يجوز علىّ ! فإنى أعرف جميع الفرنج . وكثيراً مايتوافدون هنا لزيارة شجرة مريم[1]، وحظيرة تربية النعام. وليس من العسير علىّ تمييزهم جميعا . أما أنت فإنك من بلاد الشام ، لا من مصر . وقد أدركت ذلك لأول وهلة ، من لهجة حديثك . ولن تخدعنى بقبعتك . فيالك من روسى غريب الشكل ! »

أخذ القطار يقترب ، فأسرعت إلى العربة . لكن الفتى قفز على نافذتها صائحا :

---

(١) يعنى شجرة العذراء مريم بجوار عين شمس (وهى هليوبوليس القديمة) راجع : ماسبيرو و فييت ص٢٠٨ .

— « بالسلامة. تحياتى إلى دمشق » .

قال ذلك وهو يطرف بصره بخبث ، كأنه يريد أن يردد مرة أخرى :

« لن تستطيع أن تخدعنى وتغرّر بى ! »

ولا أخفى أن هذا المديح الصريح الذى جاء على غير توقع ، قد أثلج صدرى، إذ دل على أننى ، خلال إقامتى سنتين فى الشرق ، تعلمت « البيع » ولم أقتصر على تلقن « الشراء »[1] وهو أمر كان يلوح لى عسيراً بادئ ذى بدء .

وبعد عودتى إلى « روسيا » بزمن وجيز ، تسلمت من « تيمور باشا » كلمة أعرب فيها عن أسفه لعدم وجوده فى المنزل ، ورجا أن أزور خزانة كتبه ، عندما تتاح لى الفرصة . بيد أن تلك الفرصة لم تسنح . ولكن لم يدر فى خلدى آنئذ أن الحظ سيواتينى، بعد مضى خمسة عشر عاما، لتوثيق التعارف والتآلف لا مع الباشا فحسب ، بل أيضاً مع أحد أبنائه الفلاحين ، الذين حدثنى عنهم ماسح الأحذية اليافع ، بعبارات مشوّقة جذابة .

وقعت الحرب العالمية الأولى ، وتوالت بعدها الحوادث الجسام ، فانقطع ردحا من الدهر ، ما بينى وبين العالم العربى من أسباب الاتصال . جعلت أتصيد شتى الأنباء والمعلومات عن الأدب الحديث ، فتبين لى رويداً رويداً أن تغييرات كبيرة وتطورات خطيرة قد حدثت فى هذا المضمار ، خلال العقد الأخير . لقد بزغت أسماء جديدة أخذ يسطع منها اسم أستاذ فى القاهرة ، من خريجى

(١) تشير العبارتان إلى أن المؤلف كان يتردد فى التحدث باللغة العربية عند بدء إقامته فى سورية . فكان السوريون ينحون عليه باللائمة لأنه لا « يبيع » أى (لا يتحدث إليهم) مكتفياً « بالشراء » (أى بالاستماع فقط) .

«السوربون»[1]. بل نشأت ألوان جديدة مبتكرة ما سبق لى بها عهد ، عندما كنت مقيما فى الشرق . ثم تواترت الأخبار عن ظهور فن مسرحى أخلاق ، كان أحد مؤسسيه وممثليه يدعى « محمد تيمور » ، توفى إلى رحمة الله فى شرخ الشباب ، عام ١٩٢١ . لقد دفعنى توافق الأسماء إلى أن أردد ، عن غير قصد ، ذكرى الفلاح الشاب ، ابن الباشا ؛ لكنه كان ظهوراً كالخيال السارى ، غير واضح الملامح .

وفى سنة ١٩٢٤ ، نشرت مجلة المجمع العلمى بدمشق ، مقالا لتيمور باشا ، عن الشيخ طنطاوى الذى شغل هنا منصب أستاذ اللغة العربية فى جامعتنا . كنت أعنى آنئذ بجمع بعض المواد، لوضع تاريخ حياة الشيخ، فرأيت أن أرسل إلى «الباشا» شيئا من البيانات الإضافية عن موضوع مقاله ، وصورة للشيخ ، ومنظرا لقبره فى مدافن «فولكوفو» Volkovo. وقد أشرت فى كتابى إلى اهتمامى بالأدب المعاصر، ثم استفسرت بشىء من الاحتراس والفطنة ، عن «محمد تيمور» ، الذى لقب بمؤسس المسرح الحديث ، والذى لم يعرف شىء عن مؤلفاته فى بلادنا ، حتى ذاك الحين .

رد «الباشا» سريعا ، مظهرا ارتياحه إلى المواد التى بعثت بها ، وقد اتخذها موضوعا لمقال آخر أدمج فيه صورة من كتابى . استمر بعدئذ تبادل المراسلات بيننا، ولم ينفصم حبلها إلا انتقال «الباشا» إلى الرفيق الأعلى، فى السادس والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٣٠ . لقد كان اهتمامنا المشترك بشتى الأمور من بواعث ربط الصلة بيننا ؛ وما موضوع الشيخ طنطاوى إلا الحركة الأولى التى

(١) يقصد الدكتور طه حسين باشا .

دفعت العجلة إلى الأمام. وفى سنة ١٩٢٦، أضيف إلى موضوع الشيخ موضوع آخر ، عُنى به «الباشا» عناية فائقة، هو مناقشة عدة مسائل متعلقة «برسالة الملائكة» لشاعر المعرّة. كانت تتملكنى دهشة لا تخلو من الإعجاب ، كلما رأيت تلك الدقة ، التى تتجلى فى رسائله. فقد وجد متسعا من الوقت للموازنة والتحليل والتمحيص فى دراسة مخطوطاته النادرة التى كان يعرفها حق المعرفة، ويدرك خفاياها وكنهها كل الإدراك . كانت كتابته واضحة متناسقة يملأ بها جُزازات صغيرة من الورق متساوية الحجم . ظل اهتمامه منصرفا إلى هذا الموضوع ، فترة من الزمن . لكنه كان مثلى كثير المراسلين .

لقد نبأنى فى كتابه الأول بعبارات رزينة مستسلمة، أن المرحوم «محمد تيمور» هو ابنه ، وأن أخا الفقيد «محمودا» سيوافينى بتفصيلات عن مؤلفاته . فشعرت أن سؤالى قد مس جرحا أليما داميا لم يلتئم بعد .

لم يمض زمن طويل حتى تسلمت رسالة ، مصحوبة بمجموعة كاملة ، حديثة الطبع، فى ثلاثة أجزاء ، لمؤلفات الكاتب المسرحى الشاب. وقد عُنى بإصدارها بعد وفاته شقيقه الأصغر ، وهو بداهة ثانى الفلاحين الذين سبق أن حدثنى عنهم ، الفتى اليافع فى المحطة . وبمجرد اطلاعى على هذه الطبعة ، ألممت بتاريخ حياة الكاتب الذى اختطفته المنية فى مقتبل العمر ، ثم عرفت نشاطه المنتج ، وقدرت ذهنه المبتكر . تفتحت أمام عينى مرحلة جديدة من مراحل الآداب ، وأعجبت حق الإعجاب بتلك المؤلفات التى كتبها فى الفن المسرحى . ولا غرو، فهى أولى المحاولات فى فن المسرح الأخلاق . وهى مبتكرة فى أسلوبها ، إذ كثيرا ما انتقلتْ من اللغة الفصحى إلى اللهجة العامية ، التى قلما كانت ترد على

خشبةالمسرح . لقدأُعجبت بمحاولاته الأقدم عهدا، التى رمت إلى ابتداع القصة الأخلاقية أو النفسية ، باللغة العربية ، وهو لون لم يوجد حتى ذاك الوقت فى الأدب المصرى . أما شخصية الشقيق الثانى « محمود » ، الذى بعث إلىّ بتلك الهدية الثمينة ، فكانت لا تزال محجوبة عن نظرى ، خلف ظلام كثيف .

لذلك دهشت كل الدهشة، حين وصلنى ، ولم يمض عام ، فى شهر يونيو من سنة ١٩٢٥ ، مجلدان صغيران من قصص « محمود تيمور » ، مصدران بكلمة إهداء للمؤلف . أدركت فى الحال أن الكاتب لايعالج الأدب لمجرد الهوى والتسلية ، بل يتخذه أمرا جدّيا ، ويتناوله بالجهد المنظم والدرس المتعمق . ذكر المؤلف فى مقدمته ، المطالب التى فرضها على نفسه، وتحدث عن التدريب الأدبى القويم الذى اعتبره التزاما لا يحيد عنه قيد أنملة . وفى قصصه ، أخذت أشعر لأول وهلة، بالجو الحىّ السائد فى البيئة المصرية، بيئة أبناء المدن وبيئة الفلاحين على السواء ، اللتين عرفهما المؤلف كل المعرفة ، وأدرك كنههما حق الإدراك. وكان من بواعث ارتياحى أن كشفت، فى طريقته الأدبية ، لا تأثير «موباسان» فحسب ، بل أيضاً تأثير « تشيكوف » . لقد التهمت التهاما ، فى العام المنصرم ، المجلدات الثلاثة الضخمة ، لمؤلفات المرحوم « محمد تيمور » . وها أنذا أقرأ ، بلا انقطاع ، وفى نَفَس واحد ، كتابَىْ : « محمود تيمور » . لذلك ، لم يسعنى عند إلقاء أولى محاضراتى فى الجامعة ، إلا أن أقطع الحديث ، الموضوع طبقا للمنهاج المرسوم ، لكى أقرر على رؤوس الأشهاد أن قصة مبتكرة ذات طابع عربى صميم قد وُلدت فى الأدب العربى ، ولكى أقول دون أن أتهم بالمغالاة أن « محمود تيمور » له القدح المعلى فى تقدم هذا اللون . وفى مجموعة مقتطفات

الأدب العربى الحديث ، التى أخذنا نعدّها ، نشرنا من غير ما تردد ، إحدى قصصه . وقد درج الطلبة الجامعيون على اتخاذ مؤلفاته بداية واستهلالا ، للتعرف إلى الأدب العربى الحديث . لم أُخف عن الكاتب ما تركه فى نفسى من أثر . ففى رسالة مطولة موجهة إليه ، أشدت بجهده الموفق ، فى الطريق الذى اختطه لنفسه . ويلوح لى أننى أدركت الغرض المقصود ، إذ لم يمض الحول حتى ظهرت مجموعته الثالثة ، فألحق بها الجزء الأكبر من رسالتى .

ومنذ ذاك الوقت ، ما فتئت قصصه ترد إلىّ ، بمعدل مجموعة أو مجموعتين سنويا. وما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، حتى عمرت خزانتى بأربعةعشر مجلدا ، عدا ما أعيد طبعه . لقد أثلج صدرى تقدم نبوغه وبزوغ عبقريته . ولا غرو ، فشخصيته الفذة أخذت ترتسم بوضوح مطرد ، بفضل نشاطه الذى لا يعرف الكلل . وسرعان ما تبوأ رويدا رويدا مركز الصدارة فى الحياة الأدبية ، لا فى مصر فحسب ، بل أيضاً فى بلاد أخرى . بدأ صوته يتردد صداه فى سورية وفى العراق ، حتى لقب بحق : زعيم القصة المعاصرة . ثم أخذت مؤلفاته تشق طريقها إلى أوربا ، فظهرت ، بين الفينة والفينة ، تراجم إلى اللغات الأجنبية . عندئذ تحققت من أننى لم أكن مخطئا فى تقديرى ، الصادر لأول وهلة .

ما كانت مؤلفاته السبب الوحيد لمداومة علاقاتنا . فقد ثابر على إهدائى كل جديد طريف من روائع الأدب ، معرباً عن سروره لما أذيعه عن أعمال مواطنيه ، وتقدمهم بخطوات سريعة ، فى ميادين الثقافة . ثم درجنا شيئاً فشيئاً على مضايقته بشتى أنواع الأسئلة والاستفسارات ، إما لشرح ما أشكل فهمه

من العبارات ، عند وضع معجم اللغــة العربية الفصحى الحديثة ، أو لتفسير بعض التراجم العربية لمؤلفات «غوركى» . كان «محمود تيمور» يجيب عن هذه الأسئلة إجابات دقيقة رزينة ، باذلا وسعه ، مستنفدا جهده ، شأنه شأن المغفور له والده . والفارق الوحيد هو أن أثر الزمن الجديد قد أشعر بوجوده ، فـكانت خطاباته مكتوبة على الآلة الـكاتبة ، لا محررة باليد !

وأحيانا ، كنت أقرأ بين السطور أن انسجام قلوبنا متبادل ، وأننا ، دون أن نتلاق ، قد كشفنا صلة القرابة الروحية العميقة ، التى تحدث عنها « أمين الريحانى » ، وأننا لم نكن غريبين بعضنا عن بعض . أدركت هذا بشكل مؤثر فى سنة ١٩٣٥ ، عند ما وقع تحت يدى عدد من مجلة تصدر فى « القاهرة » ، فرأيت فيه مفاجأة مقالا « لمحمود تيمور » عن شخصى . ويحلو لى أن أنقله ، أسوة بالجزء الأخير من حديثى مع ماسح « الأحذية » . ليس الغرض من ذلك هو « مدح نفسى » ، بل هو « التحدث بالنعمة » كما يقول الدراويش . أو بعبارة أخرى ، لـكى أعرب عما يشعر به المرء أحيانا من سعادة وسرور إذا نال تقدير غيره ، وبخاصة إذا كان هذا التقدير صادراً عن شعب أجنبى ، يعيش فى قطر ناء ! حيث يختلف الناس عنا ، كما أرجح .

وإليك ما كتبه «تيمور»[1] :

«فى عصر يوم من الأيام من نحو عشرة أعوام ذهبت لزيارة المرحوم والدى ـ كما كنت أفعل دائماً ـ بمنزله الخاص بالزمالك حيث كان يسكن وحيداً بين كتبه معتزلاً العالم . دخلت عليه فى حجرة عمله فوجدته أمام مكتبه بين أكوام من

(١) مجلة الرسالة ـ العدد الممتاز بتاريخ ١٥/٤/١٩٣٥ .

الـكتب والدفاتر ـ شأنه دائماً ـ يطالع ويقيّد . فلما أحس بوجودى رفع رأسه وأزاح نظارته (الخاصة بالقراءة) ودعانى إلى الجلوس . ووقع نظرى على صورة لقبر إســلامى كانت ضمن الأوراق الـكثيرة التى يزدحم بها مكتبه . فسألته ، فابتسم وقال : هذه صورة قبر الشيخ طنطاوى المدفون فى روســيا . وعجبت لأمر هــذا الطنطاوى الذى اختار بلاد الروس مدفناً له . فاستوضحته الأمر ، فأخذ يحدثنى عن هذا العالم المصرى الذى نزح إلى روسيا فى العصر الماضى ليدرّس اللغة العربية وآدابها فى جامعة بطرسبرج ـ كما كان اسمها فى ذلك العهد ـ وكيف أقام فيها حتى وافاه الأجل فدفن بهـا . ثم كيف قام اليوم من بين الأساتذة المستشرقين من يعنى بهذا العالم المصرى ، فيحقق أمره ، ويؤلف رسالة عنه ، تخليداً لذكراه .

واستهوانى هـذا الحديث ، وجعلت أنظر إلى الصورة وأنا معجَب نخور بهذا الأستاذ المستشرق الذى انبرى لعالم من علمائنا المنسيين ينشر حياته على الملإ ويشيد بذكراه . فينشر معه صفحة مـن صفحات تاريخنا المغمور ، ويشيد بذكرى بلادنا فى أصقاع نائية . ورفعتُ رأسى ونظرت إلى والدى مستفهما . فقرأ فى عينى مايجول بخاطرى وقال :

إن صاحب هذا البحث هو الأستاذ « كراتشكوفسكى » الروسى .

فى هذه اللحظة أحببت الأستاذ كراتشكوفسكى ، وشعرت فى صميم قلبى بأنه ليس غريباً عنى . وشاهدت صورته فيما بعــد ، فراعنى منها مسحة الوقار المنطبعة على محياه ، وذلك الإشعاع العجيب الذى يترسّل من عينيه ـ إشعاع الطيبة والإخلاص . واتصلت بالأستاذ عن طريق المراسلة ، فعرفت فيه رجلاً

ذا خلق متين وعزيمة صادقة وأدب جم ، فقد وهب حياته منذ نحو ثلاثين عاماً لخدمة اللغـة العربية وآدابها . فلم يهن ولم يتراجع ، بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها ، فأصبح علماً راسخاً من أعلامها ، وقوة من قواهـا العتيدة .

وإنى لا أنسى أول خطاب جاءنى من الأسـتاذ ، فقد وقفت أمامه حائراً مبهوتاً : خط عربى جميل نظيف يماثل فى وضوحه وتنسيقه خطوط الآلة الكاتبة ، تسوده روح لطيفة من سلامة الذوق فى التعبير والبساطة والهدوء . كل ذلك فى سلاسة عجيبة وصفاء غريب. وغمرنى شعور عذب فيه شيء من الزهو لوجود مثل هذا الصديق الكبير لنا ـ معشر العرب ـ يقف حياته على خدمة آدابنا وإعلاء كلمتنا فى بلاده .

وازداد اتصالى بالأستاذ ، فتوالت الرسائل بينى وبينه . وأهدى إلىّ كثيراً من مؤلفاته بالروسية ، ومضت الأعوام، ومعرفتى بالأستاذ تزداد اتساعاً . وكلما عرفت عنه شيئاً جديداً قويت محبتى له وعظم تقديرى إياه .

بدأ الأستاذ دراسته للعربية وبعض اللغات السامية الأخرى كالحبشية والعبرية فى جامعة بطرسبرج عام ١٩٠٨ . ثم رحـل إلى الشرق فزار مصر وسورية ، وأقام فيهما فترة من الزمن انـكب أثناءها على دراسة الأدب العربى القديم والحديث . واهتم بالشعر وعـلم البيان بنوع خاص . وما إن عاد إلى روسيا حتى أخـذ ينشر مقالات عن الأدب العربى . وظهر له بحث مستفيض عن القصة التاريخية فى الأدب الحديث ، وهو بحث نقدى تحليلى عن روايات جورجى زيدان ويعقوب صروف وفرح أنطون وجميل مدور . (صاحب كتاب

حضارة الإسلام فى مدينة السلام)، وتوالت بعد ذلك أبحاثه القيمة . ومن أعماله المشهورة إصداره ديوان أبى الفرج الوأواء الدمشقى باللغة العربية مع ترجمة روسية ومقدمة مسهبة عن الشعر فى العصر العباسى تعد من أنفس ما كتبه العلماء فى ذلك الموضوع ؛ كذلك يجب ألا ننسى بحثه التاريخى عن حياة الشيخ طنطاوى ، وهو بحث فذ مبتكر حقق فيه بطريقته العلمية المعروفة كثيراً من النقط الغامضة التى تكتنف حياة هذا العالم المصرى (المنسى) . ومن أعماله الهامة إصداره كتاب البديع لابن المعتز باللغة العربية مع مقدمة للكتاب بالإنجليزية، وهذا الكتاب يعد من أنفس الكتب التى عالجت علوم البلاغة فى الأدب القديم. هذا خلاف رسائله الأخرى التى والى ويوالى إصدارها ، وآخر ماصدر له ترجمة بالروسية لكتاب الأيام للدكتور طه حسين ، مع مقدمة عن المؤلف وتعليقات على الكتاب .

أكتب هذه الكلمة الصغيرة بمناسبة الاحتفال بتكريم الأستاذ فى روسيا أحييه فيها أصدق تحية ، معبراً له عما يكنه العالم العربى عامة والأمة المصرية خاصة من عواطف الولاء والشكر له . فإن رجلاً قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية فى العالم الغربى ، وأوسع لنا الطريق لنتبوأ مكانتنا بين آداب الأمم العالمية ، لجدير بأن يحتل فى قلوبنا أكبر مكانة » .

ويلوح لى أنه لا يمكن « توثيق روابط الإخاء والسلام بين الأمم »[١]

(١) إن عبارات « الريحانى » عن صلة القرابة الروحية وروابط الإخاء والسلام بين الشعوب ، مقتبسة من رسائل « الريحانى » إلى المؤلف ، وقد ورد ذكرها بإسهاب فى مقال : « فيلسوف وادى الفريكة » .

التى تحدث عنها يوما الريحانى « فيلسوف وادى الفريكة » إلا بمثـل ما تشف عنه هذه السطور من الاستعدادات الطيبة والنيات الحسنة .

لقد انتزعتنى الحرب العالمية الثانية من العرب ومن الأدب العربى ، كما سبق أن فعلت الحرب الأولى ، لثلاثين سنة خلت . لـكن بعض الجرائد والملخصات التى تسربت إلينا ، أتاحت لى التحقق من أن « تيمور » ما زال ، كسابق عهدى به ، يعمل بهمة دائبة ، بل نسج على منوال أخيه ، فبذل جهده الموفق ، لإدراك النجاح فى ميدان التأليف المسرحى . وتلك هى المعلومات التى وصلت إلينا ، تدل على أنه أصبح الـكاتب المفضل ، والمعترف له إجماعا بالتفوق ، فى أدب بلاده المعاصر . لقد أدركتُ ذلك إدراكا أكثر وضوحا عند ما وقع فى يدى أول كتاب بعد انتهاء الحرب ، وهـذا الـكتاب هو رسالة مسهبة وضعها ناقد عربىّ شاب ، فى سـنة ١٩٤٤ ، عن مؤلفات « محمود تيمور » . وإذ أخذت أتصفحها لأتبين موضوعها ، اتجه نظرى على حين غرة ، إلى فقرة لم يسعنى إلا الوقوف عندها . وإليك ما كتبه المؤلف :

« وليس من ريب فى أن الطبقة التى يخصها تيمور بودّه من بين هذه الطبقات جميعا هى الفلاحون والقرويون ... يساعد على ذلك شدة اتصاله بالريف، وذكرى الطفولة التى قضاها فيه ، يحضر مجتمعات الفلاحين ويستمع إلى أحاديثهم ويطرب لأغانيهم ، ويلعب بالـكرة فى بيادرهم . إن تيمور الأرستقراطى ليشعر بأعنف الحبّ نحو هذه الطبقة الدنيا من الشعب المصرى ، المصرية وحدها فى الصميم »[1] .

---

(١) ص٨٨ ، ٨٩ من كتاب « محمود تيمور رائد القصة العربية » للأستاذ نزيه الحكيم.

وبدافع من نفسى غير اختيارى ، أخذت أتأمل هذه العبارات ، الصادرة من ناقد رفيع الثقافة ، ومحلل منطقىّ منهجىّ . ولعمرى إن ماسح الأحذية اليافع ، قد أدرك كبد الصواب ، عندما أكد لى ، منذ خمس وثلاثين سنة ، فى إحدى المحطات بجوار القاهرة ، أن أبناء تيمور باشا : « فلاحون حقيقيون »[1] .

اغناطيوس كراتشكوفسكى

(١) فيما يتعلق بأحمد ومحمد ومحمود تيمور ، راجع المؤلفات الآتية : بروكلمان — ملحق ٣ ، ص ٢١٧ « هامش » و ص ٢٧١ — ٢٧٣ و ص ٢١٧ — ٢٢٦ ، وراجع أيضاً بيريس ، الرواية والقصة والأقصوصة ، ص ٣٣١ — ٣٣٣ و ٢٨٨ (مستخرج ٦٦ — ٨ و ٢٣) . وتوجد قائمة بمؤلفات محمود تيمور التى صدرت منذ الحرب فى مجلة « Orient Moderne » (الشرق الحديث) يناير — يوليو سنة ١٩٤٦ . والحديث عن كتاب « نزيه الحكيم » راجع : مجلة الدراسات العربية ، العدد ٢٧ ، ص ٧٧ .

أستاذ الأدب القومى

[مقال للمستشرق المجرى الأستاذ الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، نشر بمجلة Islamic Review عدد مارس وإبريل سنة ١٩٥١ .]

الأدب العربى القومى المعاصر يجد فى «محمود تيمور» كاتبا ذا مواهب فذة .

وإن مِنْ أَحَبِّ ذكريات القاهرة إلى نفسى أمسيات أيام الخميس التى قضيتها مع « محمود تيمور » وصحبه الأدباء . كنا نتدارس فى هذه الجلسات الكتب الجديدة . وكان الحديث يتطرق بنا أحيانا إلى الثورات فى العصر الأموى ، فتعود إلى الذاكرة تلك العصور القديمة ، وتهيج الذكرى ذلك النوع من الحماس فى النقاش حول المنازعات التى كانت تقوم للموازنة بين «جرير» و «الفرزدق» أيهما أشعر ؟ . ثم تطوّف بنا أمسيات « بغداد » العباسية ، فيطرب الرفاق لأسجاع « الحريرى » و « الهمذانى » المعروفة بالمقامات .

لقد انقضت هذه العصور ، وانحدرت اللغة العربية من منصات الخطابة الشامخة ، إذ أحسّت الحاجة إلى أن ترضى أهواء السواد . وهنا عدل الأدب العربىّ عن خطته فى الاقتصار على طبقة المختصين من علماء اللغة ، وأراد أن يتجه اتجاها قوميا يعبر فيه عن مشاعر الشعب ، فكان عليه أن ينتقى موضوعاته من حوادث الحياة اليومية فى أوسع صورها .

ومن أوائل الكتاب الذين نحوا هذا النحو الطبيعىّ فى تلك الظروف ، وأكبر أساتذته « محمود بك تيمور » . وقد ولد فى أسرة ذات تقاليد أدبية عريقة ، فورث حب العلم الكامن فى طبقة المثقفين المصريين، وأضاف إلى إدراكه للأشياء بصيرة نافذة ، وقلباً يحس آلام البشر وأفراحهم كما يفهم زلّاتهم . وهذه الصور المتباينة للحياة الإنسانية هى التى يتعرض لها أدب كبار الكتاب الذين يفطنون إلى دخائل بيئاتهم ، ويستبطنون دفائنها ، فيصوّرون أحاسيسها، ويفهمون دوافعها، ويقدرون مايختلج فى نفوس أهليها من المشاعر على اختلافها.

وأول باعث «لمحمود بك» فى نشاطه الأدبى كان مقتبسا من أخيه «محمد» الذى ترعرت فى نفسه ملكة كتابة القصة القصيرة والمسرحية، حتى أصبحت بحق موهبة ممتازة فذة ، إذ تأثر أثناء إقامته فى «باريس» بالواقعيّة فى الأدب الفرنسى الحديث ، فحاول أن يغرس تلك النزعة فى البيئة المصرية .

وقد بدا أول الأمر أن العقبة التى اعترضت طريقه كانت مشكلة اللغة ، فلكى تتحدث إلى الشعب وعنه ، لا مناص لك من أن تستعمل لغته .

ونحن ـ إذا استثنينا قصص «ألف ليلة وليلة» ونظائرها ـ نجد أن هذه اللغة الدارجة لم تكن إلى وقت « محمد تيمور » قد استعملت فى غير الكتب الرخيصة الغثة ، وأنها لم تكن تصلح فى الواقع أداة للتعبير الأدبى ؛ فالمثقفون يتحدثون بالعامية ، ولكنهم يكتبون بالعربية الفصحى ، تلك التى انكمشت برغم احتفاظها بقواعدها ، فهبطت إلى مستوى من التلمس أو التحايل على التعبير ، مستوى تعوزه الثقة ، ويشيع فى جوّه التردد والحيرة

وقد ساهم جماعة من أدباء الشباب بخطوات جريئة فى جعل الأسلوب

شعبياً عصرياً خالياً من التقليد القاصر للتعابير القديمة ، وذلك بما قدموا جميعاً من عبارات ناصعة واضحة .

ومنذ أن أعلن الخديو «إسماعيل» أن مصر تكون جزءاً من « أوربا » ، تغلغلت الثقافة والذوق الأوربيان فى الشرق العربى ، يصحبان الكهربا والآلة البخارية . وقد أثار هذا مشاكل اجتماعية واقتصادية جديدة ، إذ لم يكن من الطبيعى آنئذ أن ينحو بلد غنى كمصر ـ طابعه التقدم والنهوض ـ ذلك المنحى الأدبى الذى كان مقصوراً على التسلية وإشاعة البهجة والسرور والطرب فى سوامر الغطاريف والنبلاء داخل قصورهم ذوات الحواجز والأسوار .

لقد ولّت منذ أمد بعيد أيام الماضى الجميلة فى الغرب ، حين كانت الجسور المتحركة حول القصور تتدلى ليلاً ليدخل المغنون من الشعراء القاعات الفخمة، يغنون فى رحابها أهازيج المديح لساداتهم النبلاء . لقد شق الأدب طريقه خلال حواجز أقوى صلابة من الجدر المسلحة ؛ إذ اخترق الصدور ، وامتص عصاراته من قلوب الفلاحين الخافقة ، ومن صميم الصناع ذوى الحرف ، ومن الناس فى الطرقات ، صغيرهم وكبيرهم ، أو بالأحرى من جميع اللبنات فى ذلك البناء الاجتماعى الشامخ الذى نسميه شعباً .

وقد جدّت تطورات أدبية مماثلة فى معظم الشعوب الشرقية الأخرى ، فسبق الكتاب الأتراك غيرهم فى ميدان القصص القومىّ ، برغم الجو الخانق الذى ساد عهد « عبد الحميد الثانى » .

وقد أحس « محمود تيمور » الحقيقة الإنسانية إحساساً واضحاً ، وعرف صلتها التى لاتنفصم عراها عن الأدب ؛ إذ تحدث فى أحد كتبه الأولى «الشيخ

جمة وقصص أخرى » سـنة ١٩٢٥ عن ضرورة وصف الحياة كما تبدو فى الوقائع والأحداث ، لا كما يريدها الـكتاب . وأشار إلى أنه يؤمل أن تساعد الصورة التى قدمها ؛ بشخصياتها المتلاطمة وبأحداثها الواقعية ؛ على خلق قدرة ذاتية فى الشخص تحمله على النظر فى دخيلة نفسه ، وتفهّم عيوبها ، ليتلو ذلك الرقى الاجتماعى .

وهو يعتقد ـ كما بيّن فى مجموعة قصصه الأولى ـ أن الأدب هو رغبة طبيعية جامحة فى الروح الإنسانى للتعبير عن الحب والجمال . وإن هاتين القوّتين هما أقدم الغرائز التى استقرت فى قلب الإنسان ، فهما القوتان المثيرتان للفن اللتان فى أحضانهما يشب ويترعرع . والفن أقدم من المعرفة ، فهو دائما يسبقها ويتقدم عليها ـ والمعرفة قدرة مكتسبة ، على حـين نرى الفن ـ البادى فى الميل إلى التجانس والانسجام ـ يسود العالم بأسره .

والفن ليس مقصوراً على الفنون الجميلة ، بل هو العامل الفعّال فى تنسيق البيوت ، وفى ارتداء الثياب وفى الطَّهْو والسلوك وطرائق العيش بوجه عام . فالجمال والأخلاق توءمان تبعثهما الروح الخالقة للفنان .

والفنان ؛ رسّاما كان أو كاتباً أو موسيقياً ؛ لا يعلّم إلا ماهو طيب وجميل، مهما كان الموضوع الذى يتناوله بغيضاً أو قبيحاً .

بهذا التصريح يسمو « تيمور » عن الـكاتب الروائى المجرد إلى مصاف الفلاسفة الأدباء ومعلمى الثقافات .

إنتاج تيمور :

ويعد « محمود تيمور » من أغزر الكتاب إنتاجا ، إذ أن إنتاجه الأدبى يحوى الآن أكثر من خمسة وعشرين مجلدا ما بين قصص قصيرة ، وروايات ومسرحيات . وهى فى مجموعها تربى على ثلاثة آلاف صفحة، ويُبْرِزُ لنا هذا الإنتاج الروحى الضخم الحياةَ المصرية بميزاتها ونقائصها .

والروايات الأولى فى الواقع عُجالات مقتضبة أو صور سريعة اختطفت اختطافا دون علم أصحابها، ولكن بعضها يعود بعدذلك فتظهر أبطاله مرةأخرى فىفترات متأخرة منحياتهم فى ثوب أدبى أكمل يتَّسق مع ماوصل إليه أسلوب المؤلف من روعة وخلابة ؛ فمثلا «أبو على عامل أرتست» كان بدَّالا متواضعا ، اعتقَد أن فى طوقه أن يصبح ممثلا ؛ فأسس ركنا مسرحيا يقوم فيه بتمثيل فصوله الفاجعة ، وهزئ الكل بنزق الرجل إلى أن هوى فريسة لمرض عُضال نقله فى النهاية من هذا العالم المملوء بالأوهام والآلام . وتنقضى عشرون حَوْلا، ثم يظهر كتاب جديد يحوى عددا من القصص بعنوان «إحسان لله» ويتحدث المؤلف فىإحدى قصه عن «أمير هندى» غامض يعرض ألاعيبه فىصورة تخلب الألباب علىأحدث المسارح وأفخمها . ويستطرد المؤلف فيبين كيف أنألاعيب هذا الأمير الراقية المثيرة ، قد أكسبته المال والشهرة فى العالم أجمع ، وفى شىء من التردد يكشف المؤلف سر هذا الأمير فيتضح أنه « أبو على » الفنان الذى ناله منسخرية القوم الشىء الكثير . يبدأ «أبو على» سرد تطورات حياتهالتى رفعته فى أعين الجماهير وأكسبته التقدير والإعجاب . وهذه القصة تمثل أمل

الـكاتب فى أن يؤدى الأدب ، بما يقدم من أمثلة حيوية ، إلى أن تكتشف الإنسانية خصائصها ، توصلا إلى أهداف رفيعة .

تحليل لبعض آثار تيمور :

لقد بقى « محمود تيمور » كاتب العربية المصرى أميناً للأرض التى أنجبته . فمصر القديمة بأحداثها الأسطورية ، الباعثة على الرهبة والجلال ، وجدت صدى فى روحه ؛ فـ « زهرة المرقص » تصف بقصتها الغامضة راقصة جميلة شابة يحيط بها الإعجاب ، يرفعها إليه كبير الآلهة ويخفيها فى سحب خياله حيث لا يستطيع بشر أن يصل إليها .

وفى كتابه «مكتوب على الجبين» تزيح قصته الأولى « كان فى غابر الزمان» السِّتارَ عن أسرار الفن، فينحت أحد المثّالين تماثيل للآلهة المصرية ، وينغمس الفنان فى عمله ناسياً كل ما عداه ، فيشعر بلذة الخلق ، وينطلق به خياله فى ليلة قمراء ، فتظهر الإلٰهة « إيزيس » وتعرض نفسها نموذجاً له ، ويفوق التمثال فى جماله كل قوى الخيال التعبيرية ، ويحمله الفنان المأخوذ فى شغف جنونى إلى المعبد ، ثم يدلف إلى المعبد خلسة أثناء الليل ، ويغلبه النوم فيغط فى سبات عميق تحت قدمى تحفته الـكبرى ، وتمتزج روحه وجسده فى انسجام مبارك مع الأبدية الخالدة . وتقف هذه القصة على قدم المساواة ــ فى نثرها الشعرى الرقيق، وإشاراتها إلى الآلهة ــ مع قصة « أوسكار وايلد » : « العملاق الأنانى » .

ويحوى الـكتاب نفسه « العيون الخضر » حيث ترى فرقة موسيقية تعزف المقطوعات الموسيقية الـكلاسيكية ، وتظهر بين المستمعين سيدة جميلة

تهزها الموسيقى هزًّا ، فترتفع إلى أجواء أسمى مما يصل إليه خيال الإنسان ، ويتأثر الكاتب تأثرا عميقا بمنظر هـذه السيدة ، فينشأ حب خيالى بينهما ، ويستمر ذلك الغرام إلى ما بعد انتهاء الحفلات الموسيقية ، ثم يستحيل هذا الهوى أخيراً فى سحر بالغ إلى حلم شعرى ، تندمج فيـه السيدة والأنغام ، ويذوب كلاهما فى صاحبه . والقصة مكتوبة بأسلوب أشبه بنسيج اتسقت خيوطه حتى خلت من كل شائبة .

وتلعب الموسيقى دورها، فتبدو كعصا سحرية أو كرباط لنشوة الهوى فى عدة قصص أخر من أقاصيص « تيمور » ؛ فى قصة « بسمة اللبنانية » يأخذ المؤلف بيدنا إلى أرض لبنان العجيبة ، حيث تجول فتاة طاهرة فوق جبالها الرواسى الشوامخ ، وخلال أحراجها الكثيفة ، ساجدة عابدة لجمال الطبيعة ، وتلتقى فتاتنا بموسيقار ذى شهرة عالمية ، يفتّح فى قلبها الطاهر زهرات الحب الأولى ، ويزدرى الموسيقار حبها ، فتؤثر الموت فى أحد الأخاديد الجميلة . ويسوق المؤلف قصة ذلك الحب العذرى الطاهر ، وماصاحبه من اعتراف حيٍّ فى جمال وروعة يذكرانا بقصة « أونجن » للأديب « بوشكن » .

ولعل الطبيعة والحب يظهران فى أجمل صورها ، فى قصة «خميلة الحب» إذ تبـدأ زهرة جميلة فى الذبول ، وتستعيد الزهرة ــ والنهاية تقترب ــ ذكريات الشباب المرحة، وصبابات الغرام ، حين كانت تصغى لغزل النسيم، وتطارحه الهوى كأسا بكأس . وتدنو أشباح الموت من زهرتنا ، فيأتى فرفور ، يتلمس الأمن والمهرب من صياد الفرافير بين وريقاتها الجافة الناصلة ، فتحنو الزهرة ، وقد داعبتها أحلام الهوى ، على هذا الكائن المجنح الصغير ، لتحميه . وتبدأ الزهرة

والفراشة حياة جديدة ، فتقصّ الفراشة السكرى برحيق الزهرة ، حديث العالم الرحيب الذى ترفرف فى آفاقه ، وتصغى الزهرة إلى القصص فى نشوة وهيام . وذات مساء يبصر الزهرة — التى بعث فيها حب الفرفور حياة جديدة تميزت باللون البهيج والرائحة العطرة الفواحة — زوجٌ من المحبين؛ وتمتد يد العاشق الفتى فتقطف الزهرة وتضعها على صدر الفتاة، وفى ضمة من ضمات الحب تسقط الزهرة على الأرض ، تطؤها أقدامهما . وتعود الفراشة إلى مغناها فتجد الزهرة تحت مواطئ الأقدام ، ويعز عليها ذلك ، فتحاول جاهدة أن تعيدها سيرتها الأولى من الشجرة، فتفشل هذه الأجنحة الضعيفة الواهية فى أداء ذلك الواجب الضخم. وفجأة يسخر القدر فينقضّ صياد الفرافير، ملقياً شباكه ، ويندفع نصله ضامًّا هذه الفريسة الجديدة إلى مجموعته . وعلى هذا النحو يضم الموت العاشقين فى وقت معا فيذوبان فى نسمات الصيف . هذه القصة يرويها على سمع المؤلف فى غناء شائق ، بلبل غرّيد ، احتفظ به المؤلف فى قفص .

ولعل قصة « الأمير السعيد » و« العندليب والزهرة » « لأوسكار وايلد » قد أثارتا خيال المؤلف ، فى هذه القصة العاطفية الرائعة . وإنى لأعتبر هذه القصة إحدى تحف « تيمور » الكبرى ، فإن فيها وصف الطبيعة بنفحاتها الهامسة، وأحاسيسها الرقيقة ، بأسلوب عربى حىّ بالغ الصفاء ، يضع الكاتب فى طليعة كبار الكتاب المعاصرين .

ملكة تيمور الكبرى تظهر فى قصصه القومى :

لقد كتب « تيمور » عدداً من القصص على غرار ماقدمْت ، وجميعها تمتاز بنقاوة أسلوبها وجماله ، ولكن مع هذا فإن ميزة المؤلف الكبرى تظهر فى الناحية الجديدة من أدبه ، تلك التى تناول فيها الحياة الواقعية بشخصياتها الحية ، وهذه القصص تحوى الكبير والصغير على السواء .

وهى مرآة للحياة العامة تعكس صورها فى وضوح يتيح لك أن تعرف نفسك وأصدقاءك من بين الشخصيات الخيالية التى يخلقها المؤلف . وقصة « كيف طارت منى أكسفورد ؟ » هى صورة فكهة لصحفى هيأت له رغبته أن يزوّد جريدته بأخبار جديدة، بأن ينشر حديثاً لصديق له عن غراميات أبيه ، فيثور الأب ويقرر معاقبة ابنه بحرمانه من التعلم فى جامعة «أكسفورد» .

وكذا قصة « تأمين على الحياة » تتحدث عن أفّاق يقضى وقته فى الحانات حيث يعتبره رفاقه فى الشراب ، مستشارهم القانونى . ويقع حادث فى الطريق فيهرع الرفاق المنتشون إلى الطريق ليروا ماحدث ، ويتبين الصحاب أن سائق سيارة دهم صبياً من بائعى اللبن ، ويتقدم بطلنا الأستاذ « شافعى » بتأنيب مسهب للتأثير فى السذّج البسطاء، فيبتز بذلك تعويضاً من السائق ، ويتقدم صبى اللبان الخائف من لقاء صاحب الحانوت بدرّاجته المحطمة إلى الأستاذ «شافعى» ، يرجوه أن يصحبه إليه . وعندما يركل اللبان الغاضب الصبى بقدمه فى قسوة بالغة ، يهدده « شافعى » بأنه سيبلغ الأمر إلى الشرطة ، فيجبن اللبان ويقدم له رشوة ، فتشجعه هذه النقود السهلة المورد على أن يعقد اتفاقاً مع الصبى ، ويقرر الاثنان أن يعملا معا ، فيكسب الولد بالتدريج خبرة عجيبة فى التسبب فى

حوادث ينجو هو منها فى اللحظة الأخيرة. وتتراكم التعويضات فى جيب «الشافعى» الماكر ... وهكذا تزدهر الشركة وتترعرع إلى أن يقع حادث يكاد يودى بحياة الصبى ، وهنا تختمر فكرة شيطانية فى رأس « شافعى » ، فيؤمن على حياة الولد بمبلغ ضخم ، ويحاول بعد ذلك أن يلقى به إلى الموت . وبمجرد أن يدرك الولد تلك الحقيقة المرّة ، وتتفتح عيناه على وحشيّة «شافعى» ، يرفض فى وضوح أن يموت ليضع المال فى جيب سيده ، وينشأ من هـذا كله عراك يتبادل فيه الاثنان النقاش ، ويزداد هذا العراك عنفاً حتى يسقط الاثنان من شرفة عالية إلى طوار الشارع ، فيدركهما الموت معاً .

وفى بعض قصص « تيمور » يصف المؤلف الحياة الريفية وأهلها السذّج الذين يرزحون تحت نير الخرافات ، فيقدم إلينا عدداً من الدجالين الذين يحرقون البخور المقدس أينما حلّوا ، بينما ترمق النساء المؤمنات بالدَّجَل كل مايقومون به من أعمال تسترهب الناس فى دهشة وإجلال . ثم يتبين القارئ بعد ذلك أن هؤلاء الأولياء الذين يعيشون فى عزلة يفرضونها هم على أنفسهم ، ليسوا فى الواقع سـوى مجرمين قدماء ، حاولت الشرطة عبثاً أن تلقى القبض عليهم . وعندما يموتون تقام لهم الأضرحة التى تغدو مزارات للضراعات والشفاعات الخاشعة .

فى هـذه القصص يزيح المؤلف الستار فى براعة خلاّبة عن الزَّيْف الذى يشوب الأساطير الدينية ذات الخرافات المتداولة . ومن قصص المؤلف فى هذه الناحية: « ولىّ الله » و « عم متولى » و « ضريح الأربعين » ...

ويقدّم « تيمور » فى « أبى الهول يطير » وصفاً مفصلا لرحلته إلى

« أمريكا » ، والكتاب مهدى إلى ذكرى ولده الراحل ، ويسوده جو من الرصانة يقرب من الحزن ، وهذه اللهجة الرصينة الحزينة تصف أبهج وأعذب مافى الحياة الأمريكية من خصائص ، سواء كانت ميزات أم نقائص .

الدعابة عند تيمور :

ودعابة « تيمور » الأصيلة التى تظهر فى قصصه القصيرة تبرز فى أبهى صورها فى قصته الطويلة : « كليوباترا فى خان الخليلى » إذ يعقد مؤتمر للسلام فى القاهرة ، يجتمع فيه حكماء وفلاسفة العالم ، ليكافحوا ويدفعوا خطر الحرب ، ويقترح أحد الأعضاء ذو النزعات الروحية أن تدعى بعض الشخصيات التاريخية الكبرى من العالم الآخر ، وبعد عدة محاولات غير مجدية ، تصل روح « كليوباترة » و « تيمورلنك » على موجات الأثير من العالم الآخر ، وتتحول كليوباترة إلى سيدة متواضعة على كثير من الحياء ، إذ هى تزدرى النزول فى الفنادق الفخمة ، ولا تحفل بأدوات التجميل ، ثم هى بعد هذا وذاك تتصرف تصرف العذارى اللاتى يفضن حياء وعفّة . كما أن « تيمورلنك » المحارب الذى لا يعرف الرحمة يتحول إلى مسلم تقى يعيش فى رحاب أحد المساجد يوزع الصدقات . وحينئذ فلا سحرُ الملكة المصرية المثير ، ولا ظمأُ المحارب الشهير إلى الدماء ، يستطيعان أن يفيدا المجتمعين الحائرين فى المؤتمر . ويتفق مرور أحد متعهدى الحفلات الأمريكيين فى القاهرة ، ويدرك الرجل توًّا ما يدرّه الاتصال بالشخصيتين التاريخيتين من أرباح ضخمة . ومن أعماق الأثير يطل البطل « أنطونيو » فيعرض متعهد الحفلات الأمريكى مليون دولار على

الأرواح المجسّدة إذا قبلت الظهور فى ناد راقص « بأمريكا » ، ولكنهم جميعا يرفضون العرض فى احتقار . ويناقش المؤتمر فى حماس مافى جدول الأعمال من موادّ، وينزلق النقاش إلى أمور فرعية لاعلاقة لها بما فى جدول الأعمال من موضوعات ومسائل، فلايستطيع المؤتمرون تحديد معنى كلمتى «الحرب» و«السلم» فيدعون ممثلا للبلاغة الدولية . وتزور إحدى الجمعيات الخيرية المؤتمر ، فيتفق على إقامة سباق للخيل لمساعدة الفقراء، على أن يكون الرهان قبلة من « كليوباترة» ويأخذ متعهد الحفلات الأمريكية « فاما » لهؤلاء المؤتمرين ، ويخفق المؤتمر فى مهمته ، وينحل فى موجة من سخرية الجميع .

و«كليوباترة فى خان الخليلى» نقد لاذع زاخر بسفاهات الإنسان وحماقاته ، والموضوع جدير بقلم «برنارد شو». وأسلوب الكتاب فى جملته يتمثل الكتابة القديمة ، ولكن بقدر مقبول .

تيمور المربى

قدم « تيمور » المربى قصة طويلة هى : « سلوى فى مهب الريح »

وهو يصف فيها الجانب العابث فى حياة المترفين من المصريين الذين يعيشون على الديون ، ويحيطون أنفسهم بالأكاذيب ، متسببين بذلك فى جلب الشقاء والمصائب لذويهم ، مما يهدد بانهيار المجتمع . والأسلوب هنا هادئ متزن ، وهو لحسن الحظ يجمع بين العبارات الشعبية والجمل الأدبية الرفيعة.

« ونداء المجهول » قصة أخرى تحملنا إلى غابات « لبنان » حيث تجتذب أقاصيص القصر المسحور القرويين الذين يعيشون على مقربة منها، فقدتدله صاحب هـذا القصر فى حب عذراء جميلة اعترض أبواها على تزويجها منه ، وفى يوم

زفاف العذراء إلى شاب آخر أطلق «يوسف» صاحب القصر الرصاص عليها ، ثم اختفى ، وتداعى القصر ، وحلت فيه الأشباح والأطياف . ثم يحدث أن تضيق سيدة إنجليزية ذرعا بحياة المدينة الصاخبة فتعتكف فى قرية لبنانية وتستهويها أقاصيص القصر المسحور ، فتحاول الكشف عنه . وتجمع السيدة لفيفاً من بين أفراده المؤلف للكشف . وتبدأ الجماعة رحلتها فى تلك المجاهل ، وتتكبد من مشاق التسلق الشيء الكثير إلى أن تعثر مصادفة على بعض أطلال موحشة يقيم فيها إنسان متوحش لايلبث أن يهاجمهم ، ويطلق عليه أحد أفراد الجماعة طلقة من مسدسه فينزعج هذا الإنسان . وتبدو «مس إيڤانس» فتضمد جراحه وسرعان ما تتبين الجماعة أن هذا الإنسان نصف المتوحش ليس قاطع طريق ، وإنما هو « يوسف المجنون » الذى اتخذ من هذه الغابات الموحشة مأوى له ، بعد أن قتل من شغفته حباً ، وعاش فى هذه الغابة على الخضر والفاكهة يذكر حبيبته ويهيم باحثاً عن روحها . ويشفى الرجل من جراحه فيهذى كما يهذى المجانين ، ويفهم الجماعة من هذيانه أنه بات معتقدا أن الفتاة الإنجليزية هى عروسه المتوفاة وقد عادت إليه فى ثوب جديد ، وتبقى الفتاة التى سئمت العالم إلى جواره ، تشاركه وحدته وعزلته عن العالم المتحضر .

والقصة مملوءة بالوصف الرائع لجمال الطبيعة ، وبرغم أنها خرافة أسطورية ، فهى قصة نفيسة تتفق مع المنطق كل اتفاق ، وتثير عددا من المشكلات هى شغل الفلاسفة الشاغل ، ولغتها الدسمة الفنية تملك على القارئ حواسه ، وإن موضوع القصة المثير ليزيد فى المتعة التى يشيعها الأسلوب فى النفس .

وليس المقام هنا مقام استرسال فى التحليل ، وخاصة أن النبع لاينضب .

وحسبنا أن نشير إلى أن قصة « الأطلال » تعرض صورة حية للحياة المصرية منذ خمسين عاماً ، حينما كانت التقاليد الإسلامية المفروضة على المرأة تنفذ بدقة بالغة ، وحين كان حب الفتى اليانع يخترق الحواجز العائقة ليجلب لصاحبه العذاب والآلام المريرة . ويبدو أن القصة فى جوها وفيما تصور من مشاهدها هى اعتراف متواضع لجانب من بيئة « تيمور » فى طفولته .

تيمور المسرحى :

وقد حاول « تيمور » فى مقدمات بعض كتبه أن يجد حلا لمشكلة اللغة العربية الشائكة ، حينما كتب عددا من المسرحيات . وقد وضع الأدب العربى الكتّابَ فى مأزق حرج : فهل الواجب أن تستعمل العربية الفصحى أو لغة العامة ؟ إذ أن الفرق فى اللغة العربية بين الاثنتين ـ لغة العامة ولغة الكتابة ـ أكثر بكثير منه فى باقى اللغات الإسلامية ؛ كالتركية والفارسية .

وفى إحدى مقدمات الكتب يقرر «تيمور» أن المسرحيات التى لن تمثل يجب أن تكون لغتها الفصحى ، على حين أن المسرحيات المحلية التى يحتمل عرضها على المسرح يجب أن تكون بلغة القوم الذين سيشهدونها ، وكقنطرة تصل بين أسلوبين : نشر «تيمور» قصة «المخبأ رقم ١٣» . وهو كتاب يجب أن يقرأه عشاق البحث اللغوى جميعا بالأسلوبين العامى والفصيح .

والمسرحية من ثلاثة فصول ، وهى عرض مرح للضعف المضحك الذى يعترى الإنسان فى لحظات الجزع أو الخوف . وقد تنجح هذه المسرحية إذا مثلت .

ومسرحياته الأخرى « كسهاد » تعرض البيئة الشاعرة للمجتمع العربى

فى العصور الوسطى ، وقد شاعت فى أرجائه قصة حب رائعة لامعة وضّاءة . وهى تناسب تماما « الأوبرا » . و« حواء الخالدة » تحملنا أيضا إلى بيئة عربية، ولـكنها ليست بيئة النبلاء سكان القصور، وإنما هى الصحراء العربية التى تنبسط أمام عيوننا ببطولة شخصياتها وبنسائها اللائى يستشعرن أنوثتهن واللائى يغالبن بسحرهن وخداعهن النسوى ، ليستحوذن على قلوب محبيهن ، ثم لا يلبثن أن يقعن فى النهاية فى شباك خداعهن .

وهذه المسرحية تستهوى قراءها لا لمجرد تصويرها الصادق للمجتمع العربىّ العتيد فحسب ، ولـكن لأسلوبها القوى الموسيقى الذى يوائم البيئة ويتمشى مع أنغامها .

و « تيمور » المتأثر « بموباسان »، والمُريد المخلص «للمويلحى»[1]، يمثل خطوة جديدة فى الأدب العربى . ولعل أظهر حصائص الفنان العظيم هى إخلاصه الذى لا يتطرق إليه الشك ، فما يراه الفنانون خلال أعين النـاس يتطهر من

(١) ازدهر فن « محمد المويلحى » فى طليعة القرن العشرين ، وتميز بكتابه البارع « حديث عيسى بن هشام » وهو تقليد مرح للمقامات العتيدة ، وإن كان أسلوبه فى مجموعه أسلوبا عصريا سهلا . وموضوع الحديث هو بعث أحد الباشوات المصريين من قبره ، وفى جولاته يثور الرجل على الأوضاع الحديثة التى تغيرت والتى يصفها فى سخرية نقية مصفاة جيدة أصيلة بعيدة عن السباب . ويهدى «المويلحى» كتابه إلى إمامى الإصلاح الاجتماعى : « جمال الدين الأفغـانى » و «محمد عبده» ، وقد أصبح أسلوبه مثلا يحتذيه كثير من الـكتاب من بعده .

الشوائب فى مصفاة أرواحهم ، وعندما يعرضونه من جديد ينساب من نبع عبقريتهم البعيد الأغوار صافياً خالياً من كل شائبة .

وتنعكس شخصية « تيمور » فى إخلاص تام فى كل كتاباته ؛ كأن رساما صادقا قد خلده بريشته . ونحن لا نرى الوضوح التام والصدق الخالص يشيع وحده فى شخصيات « تيمور » وأبطاله ، ولكنا نحس روحه الإنسانى العطوف النبيل يقرب هذه الشخصيات من قلوب الناس ، ويسمو بها من أجواء التعاسة والنقائص ، لتجد هدفها الحقيق فى الجمال والحب ؟

بودابست　　　　　　عبد الكريم جرمانوس

— ١ —

الأدب العربى فى نصف قرن

يمكن أن يقال فى صراحة إن النهضة الأدبية قد بدأت فعلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وأن ما كان قبل ذلك ليس إلا استمراراً للمعالم التقليدية المنتقلة من القرن التاسع عشر ...

ولكنا لا نستطيع أن نطلق هذا القول على عمومه ... فإن بذور النهضة الاجتماعية والأدبية فى «مصر» قد بدأت فعلا قبل الحرب .

فإن كتاب «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» قد صدرا سنة ١٩٠٥ .

وكتابات «محمد عبده» كانت تنشر قريباً من هذا التاريخ .

ومقالات «أحمد لطفى السيد» عن القومية المصرية بدأت تنشر فى «الجريدة» سنة ١٩٠٧ .

وكتابات «مصطفى كامل» فى الوطنية المصرية كانت مقروءة منذ ١٩٠١

ولكن هذه الكتابات على قوتها السياسية وآثارها الاجتماعية تتميز بغلبة روح التقليد ، ولا تندمج تحت « اللون الجديد » الذى عرف بعد الاستقلال ، وبعد سنة ١٩٢٢ على وجه خاص ، ذلك اللون الذى تعاونت المطبعة والصحافة على إنتاجه وإبرازه .

المدرسة الجديدة

كان من الطبيعى بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها أن تنشأ هـذه

المدرسة الجديدة فى الشعر والأدب ، وأن تحاول أن تطعم الأدب العربى بروح الأدب الأوربى . وكان قادة هذه المدرسة ودعاة الفكرة الجديدة مجموعة من الأدباء والمثقفين الذين عادوا من «أوربا» أو الذين تمكنوا من مواصلة النشاط الفكرى الغربى وهم مقيمون فى «مصر» .

ومن ثم بدأ الأسلوب العربى يأخذ سمتا متميزا عن الأسلوب التقليدى ... وأخذت تغلب روح إبراز الفكرة والعناية الموضوعية أكثر من ذى قبل .

فقد كانت العناية باللفظ وأناقة العبارة هى الهدف الأول من الكتابة ... فجاء اللون الجديد يقلل من أهمية الإسراف اللفظى ويجعل للفكرة المقام الأول، ويدخل إلى فن الكتابة : الموضوعية والواقعية والاتجاه المنطقى القائم على مقدمات ونتائج ، ويسقط التعبيرات المطولة، وينفر من الاستطراد ... ومن ثم تجددت لغة الكتابة وانصقلت ، وأصبحت صالحة للأداء .

معركة القديم والجديد

بدأ الصراع فى كل ميدان فى السياسة والاجتماع والفكر بين المحافظين والمجددين ، وكان كل من الفريقين يتعصب لآرائه وأهدافه، ولا يقبل حلا وسطاً بينه وبين الجانب الآخر ، فأصحاب الجديد يذهبون فى المبالغة بجديدهم كل مذهب ، وأصحاب القديم يذودون عن القديم بكل سلاح .

وكلا الفريقين ينسى عامل الزمن ... الزمن الذى لا يمكن أن يقبل التطور طفرة واحدة ، ولا يمكن أن يجمد فيقف عند حد محدود .

ومن ثم قامت أسباب الجدل والخلاف والخصومة بين الفريقين ، وتناثرت الاتهامات والدعاوى ، من اندفاع وإسراف ، ومن جمود ورجعية .

كان دعاة التجديد يطالبون بحرية المرأة فى التعليم والزى والسفور ، وقد أسرف هؤلاء ، فكانت الضحايا عندما اصطدمت الشهوات بالحرية .

وكان دعاة التجديد يسرفون فى نقل الآثار الأدبية والفكرية، مايحسن منها ومايعاب، دون تقيد أو موازنة بين الاستعداد الروحى والفكرى والاجتماعى هنا وهناك ... ودون معرفة لمدى قدرة المعدة الشرقية على هضم هذه الآراء واستيعابها . ولكن المعركة انتهت بعد عشر سنوات إلى لون من الاعتدال والتوازن ، فقد فصل الزمن نفسه فى الخلاف !

وعاد الكتّاب إلى تقدير التراث الشرقى وإعزازه ، وخفت موجة التحامل عليه ، وأخذ النقل عن الغرب يأخذ صورة الصياغة والإذابة فى الكيان الشرقى مع ترقيته حثيثاً .

وانتظم الفكر الشرقى لون جديد ، فيه روح الشرق وفن الغرب ، ومن ثَمَّ أخذ يزهو ويزدهر .

وقامت مساجلات أدبية بين الكتّاب المجددين أنفسهم ، حول الثقافات الغربية وحول بعض الآراء فى الأدب العربى نفسه ، وحول المذاهب الأدبية والشعرية .

وظهرت طائفة أخرى من الأدباء ، هى طائفة أدباء الشباب التى أخذت تواجه الأدباء المجددين وتتهمهم بأنهم ينتقصونها ، ولا يفسحون لها المجال .

ثم وصلت هذه الطائفة الجديدة إلى المجد بعد ذلك أو كادت ، ولكنها — فيما يبدو — أقل جودة وفنّا من الرعيل الأول ...

وظهرت مؤلفات متنوعة أثارت ضجة فى بعض الأوساط، وكان لها صدى بعيد المدى بالنسبة للدين والعلم ، لأنها اتصلت ببعض العقائد والتقاليد الدينية والاجتماعية من قريب .

هدف الأدب

وأخذ الأدب يتجه نحو هدف واحد ، هو « التثقيف العام » ، وأخذت الصحف اليومية والأسبوعية تفرد للأدب صفحات كاملة .

وكان من أبرز ما أدخل إلى الأدب العربي : الطريقة الأوربية العلمية الحديثة فى البحث والنقد والتأريخ .

هذه الطريقة التى كان أول من أذاعها « ديكارت » فى مقاله عن المنهج ، وهى التى تعنى ببحث أى مسألة دون التقيد بالعوامل الشخصية أو العاطفية ، وتلقى بالآثار الموروثة بعيداً ، وتدعو إلى إجراء الفحص والتنقيب دون تقيد بعلم سابق ، وقد نجحت هذه الطريقة فى بعض الدراسات ، ولكنها تعثرت حينما اصطدمت ببعض العقائد الدينية أو الحقائق الغيبية .

النقل والترجمة

وبدأ الاهتمام قويا بالنقل والترجمة ، ونُقل الكثير من روائع الأدب الأوربى . والترجمات الحديثة على نوعين : ترجمة كاملة ، وترجمة نقل وتصرف .

ومن الترجمات النافعة كتب «أرسطو» التى نقلها الأستاذ «أحمد لطفى السيد» وترجمات «عادل زعيتر» لآثار «جوستاف لوبون» .

وكما ترجم الكثير من القصص الأدبية النافعة ، ترجم أيضاً بعض القصص المبتذلة التى ليس لها سمة ثقافية عالية ، والتى قصد بها إلى إرضاء بعض الرغبات .

أدب المقالة

وكان أبرز الألوان الأدبية الحديثة : أدب المقالة ...

فقد تطور هذا النوع حتى أصبح أجـود ألوان الأدب وأعظمه مكانا ، ويرجع السر فى ذيوعه إلى أنه أقرب الأنواع إلى الأعمال الصحفية ، والصحافة هى التى حملت النهضة الأدبية الحديثة فى «مصر» واحتضنتها .

ومعظم المؤلفات التى أخرجها كبار الـكتاب ليست سوى مجموعات من مقالات نشرت فى الصحف ، ثم رتبت على ضوء طابَعها أو موضوعها .

كما يرجع السر فى نجاح فن المقالة إلى إحاطته وشموله ، إذ أمكن أن يجمع بين الترجمة والنقل ، وأن يشمل دراسات الأدب والفن والاجتماع والسياسة .

وبالجملة فإن أدب المقالة اليوم هو عماد الألوان الأدبية والفكرية، وقدتطور مع الزمن ، فتميز بالبساطة والإيجاز .

المقالة السياسية

والمقالة السياسية من أبرز أنواع المقالة ، وأقربها إلى روح الشعب ، وأيسر ألوان الأدب وسيلة للشهرة والظهور ...لأنها أفعل فى نفوس الناس، وخاصة فى القرى والريف .

وقد هدفت دائما إلى نقد تصرفات الخصم من الحزب الآخر ، وكان لها فى الصحافة مكان أىّ مكان ... فقدشغلت مصر بالخلاف الداخلى والتناحر السياسى فترة طويلة ، فـكانت المقالة هى أداة الصراع والنضال والجدل بين المعسكرين المتخاصمين .

وقد حملت كل ألوان النقد والعتب والتقريع والهجاء والتعريض ... ثم فترت حماسة الخصومة السياسية بعد الحرب الأخيرة، واعتزل السياسة كثير من كبار الـكتاب . وانتقلت المعركة الحزبية إلى الخـبر والصورة الـكاريكاتورية

والنكتة السياسية ... واستُحدث أسلوب لاذع في النقد عُرفت به بعض المجلات الأسبوعية ، وإن كان هذا ليس في الواقع لونا من الألوان الأدبية ، بل هو عمل صحفي محض .

ويعد « العقاد » و« طه حسين » و« توفيق دياب » من أقسى الكتاب السياسيين وأعنفهم ، كما يعد « هيكل » و « عبد القادر حمزة » و «المازني» من أكثرهم لباقة ودهاء .

ارتباط الأدب بالسياسة

وارتبط الأدب بالسياسة إلى حد بعيد المدى ، فقد كان جميع أدبائنا هم في الوقت نفسه كتاب سياسيون، وكانت السياسة عملهم الأول . وكانت كذلك مصدر شهرتهم ولمعان أسمائهم، وتعرف الأوساط الشعبية إليهم، إذ كانت المقالة السياسية هي الرباط الأقوى بين الأحزاب والعامة .

وليس في ذلك من عيب ، فإن الكتابة السياسية لون من ألوان الأدب ، كما أن الأداء الأدبي للجهاد الوطني هدف كريم من أهداف الأدب . ولكن الكتابة السياسية عندنا لم تقف عند حد العمل الوطني في سبيل خدمة قضية الحرية والاستقلال ، بل دخلت في جدال حزبي بلغ الأسلوب فيه أحيانا إلى حد الإقذاع .

وكان للسياسة في هذا شهوتها الطاغية التي تقلب الحقائق ، وتزيف الأديم الصحيح ، وتمزج الحق بالباطل .

وقد وقع للأدب بعض هذا الشر ... ونقل الأدباء إلى ميدان الجدل الأدبي أساليب السياسة وبعض تعابيرها ومناوراتها !

ولم يكن امتناع ذلك ممكنا ، فقد كان الأدباء هم أنفسهم كتاب السياسة !

ونستطيع أن نقول إن الأدب خدم السياسة، ولـكنه لم يخدم الاجتماع مثلا...

فقليـل أولئك الـكتاب الذين عنوا بالدراسات الاجتماعية أو هدفوا إلى الإصلاح ، وقد أثيرت بعض القضايا التى ترتبط بهذا المعنى ، كقضية الفن وهل هو للفن أو للمجتمع ؟

مرحلة انتقال حادة

وأخـذ الـكتاب يقسمون النثر الأدبى الحديث إلى : أدب وصفى وأدب إنشائى ... وقد نشأ بالطبع من جراء هذا طبقتان من أصحاب الأقلام : كتّاب، ومنشئون .

ومن ثم دخل الأدب العربى الحديث فى مرحلة « انتقال » ، ولم تكن هذه المرحلة فى الواقع مقصورة على الأدب وحده ، بل كانت شاملة للسياسة والاجتماع أيضا ...

كانت مصر تنظر فترى الحضارة الأوربية والثقافة الغربية هى نتاج القوىّ المسيطر والمستعمر المحتلّ ... وهى سلاح الأقوياء الذين ملـكوا الدنيا ، وسادوا أقطار الأرض، فكان حقا على الضعيف أن يقلد القوى ... ومن ثم أخذنا نقطف من الحضارة الأوربية والثقافة الأوربية معا نتاجها ، دون أن نبالى بجودته أو رداءته ... صلاحيته أو فساده !

ومن ثم تداخلت فى التطورات الأدبية والفكرية روح من الجرأة على الماضى وعلى الشرق وعلى مقدساته وأديانه وتراثه .

وازداد هذا الاتجاه قوة بعد «تغريب تركيا» وخلعها للثوب الشرقى واللغة

والدين ! فقد كانت « تركيا » دولة الخلافة وموئل ظل الله فى الأرض ، فإذا تجرأت هذه الجرأة ، فقد حق على دول الشرق وفى مقدمتها «مصر» أن تذهب فى تيارها وتمضى فى طريقها . ومن ثم ظهرت بعض النزعات الجريئة التى أطلق عليها «الإلحادية» فى ذلك الحين، كما نفذت إلى المجتمع ريح الإباحية والانطلاق... وأخذتْ صورةَ العمل على التخلص من القيود المعوقة للنهضة !

النزعات الجديدة

كذلك أثير فى النصف الماضى من القرن العشرين كثير من القضايا والبحوث والمسائل ، منها ما كان حول اللغة العربية والعامية وحول الأساليب والمعانى ، وحول الترجمة والتأليف ، وحول العربيـة والفرعونية ، وحول الطربوش والقبعة ، وحول الدين والسياسة ، وحول الروحية والمادية .

وحمل العائدون من أوربا لواء الدعوة إلى التجديد فى الأدب والمجتمع فى حماس وقد حجب هذا عن أعينهم بعض الحقائق والمقومات الخاصة التى لا غنى عنها .

وكان من آثار ذلك انتقاصهم لبعض معالم الدين والقومية والشرقية ، أو إسرافهم فى تقدير بعض حقائق الوطنية ، أو تقدير مدى التراث العربى والشرقى.

ولـكن هذه الحماسة التى هاجمها المحافظون طويلا ... لم تلبث أن فترت وعادت الموازين مرة أخرى إلى الاعتدال ، وبدأ الـكتاب يعالجون ــ فى توسع وإفاضة ــ أمور الشرق وتراثه وماضيه ، بأسلوب يظهر فيـه التقدير الواضح والإنصاف الرجيح .

وقد كان لتفشى روح القومية واستفحالها فى الغرب أثره فى الشرق وفى «مصر»، فقد ظهرت نزعة الوطنية الضيقة والقومية المتعصبة ... وبرزت فـكرة

بعث الحضارات القديمة كالفرعونية فى مصر والبابلية فى العراق والآشورية فى سوريا ، واندفع بعض الشباب فى الجرى وراء مذاهب الشك والإباحة .

ثم مرت «مصر» بهذه الفترة العصيبة الحادة ، واستقامت بعدها أمور الفكر ، فأمكن تقدير المذاهب الجديدة والتفريق بينها ...

ومن البحوث التى أثيرت : الكلام حول أهداف الأدب ، وهل غاية الأدب توجيه الحياة الاجتماعية ؟ وهل دراسة الحياة القائمة أنفع من دراسة الماضى أو العكس ؟ وهل الأدب ضرب من الإصلاح أو فن من الفنون ؟

وهل يعتصم الأدباء بالأبراج أو ينزلون إلى الشوارع ويندمجون فى المجتمع ؟

فى إبان الحرب الأخيرة

وفى إبان الحرب الأخيرة اتجه كثير من أدبائنا إلى الميدان الأدبى الخالص، والإنتاج المجدد ، وكان هذا الاتجاه فى الأغلب نحو التاريخ والأدب الإسلامى ... سواء من الناحية التاريخية أو من الناحية النفسية التحليلية .

أثر الآداب الغربية

ولا يعرف بالضبط مدى أثر الأدبين الإنجليزى والفرنسى فى الأدب العربى الحديث ، فذلك بحث طويل . ويمكن القول هنا بأن الأدب العربى قد نهل من كلا المصدرين إلى حد كبير ، ويبدو أن الثقافة الفرنسية أقرب إلى النفس الشرقية ، وأن الثقافة الإنجليزية أقرب إلى العقل العربى .

وقد كان لارتباط الأدب العربى الحديث بهذه الآداب أبعد الأثر فى ظهور ملامح من المذاهب الأدبية الحديثة ، كالرمزية والمجازية والواقعية والمستقبلية . وقد نحا أدب المهجر نحو المذهب الرمزى والوجدانى معا .

الشعر

أما الشعر ، فقد بدأ القرن والشعر التقليدى لا يزال يجرى فى نطاقه الضيق المحدود ... ثم انتقل إلى مرحلة جديدة يمكن أن نطلق عليها اسم « المرحلة الاجتماعية » ، وكان قوامها « البارودى » و « حافظ » و « شوقى » .

ثم أخذت المدرسة الحديثة تصاول القدماء، وتنازعهم مكانهم فى عالم الأدب، فظهر « مطران » و « العقاد » و « عبد الرحمن شكرى » ...

وبرزت بعد ذلك طائفة أخرى من الشباب اتخذت الأسلوب المهجرى والرمزى ، وتقدم الشعر التمثيلى خطوات ، وكذلك تطور الشعر الغنائى .

واستطاع الشعر فى هذه المراحل المتصلة أن ينتقل خطوات واسعة من الألوان التقليدية ، وشعر المناسبات والرثاء والمدح ، إلى المعانى النفسية العليا والآفاق الروحية والاجتماعية والفنية . وتميز اللون الجديد بوضوح الفكرة وجودة الأداء.

القصة

وتعد قصة «عيسى بن هشام» أول باكورة قصصية تقليدية ... فقد اختار «المويلحى» أسلوب المقامات ، ورسم صور شخصياته على ذلك المنحى الذى كان متداولا ومستساغا فى ذلك الحين ، وإن جاءت قصصه خالية من الحبكة الفنية وترابط الحوادث ، مع أنها مجموعة منسقة من الطرائف والسخرية والفكاهة .

ثم بدأت القصة المصرية على الطريقة الحديثة ، عندما ظهرت قصة «زينب» للدكتور « هيكل » .

ثم أخذ « محمد تيمور » و « محمود تيمور » وغيرهم يكتبون قصصهم

الجديدة المستمدة من البيئة المصرية والقائمة على أساس الفن الحديث .

وتطور الاتجاه القصصى ، حتى أصبح ينتظم عدداً كبيراً من الكتاب الشباب ، فضلا عن اشتغال الكتاب الكبار به ، فقد كتب «المازنى» عديداً من الأقاصيص والقصص فى مقدمتها : «إبراهيم الكاتب»، كما كتب الدكتور «طه حسين» : « الأيام » ، وكتب «العقاد» : « سارة » .

ومن ثم أخذت النهضة القصصية تأخذ مكانها فى الأدب العربى إلى جوار الشعر والمقالة .

ولسنا الآن فى مقام المفاضلة بين لون ولون ، ولكننا نستطيع أن نقول إن «محمود تيمور» هو الرائد القصصى الأول فى الأدب العربى الحديث كله ، وأنه قد اشتغل بهذا الفن منذ سنة ١٩٢٤ أو قبل هذا التاريخ حتى الآن . لم يفارقه ، ولم يتركه ، ولم يشرك به فناً آخر من فنون الكتابة إلا قليلا .

وقد تجرد له ، وأخذ يعمل فى ميدانه ، حتى كان له ذلك النتاج الموفور من من القصص والمجموعات القصصية المنوعة .

فهو قد كتب المسْلاة والقصة القصيرة والقصة الطويلة والمسرحية والسينمائية، وكتب باللغة العامية واللغة العربية . وكتب فى مختلف المذاهب الواقعية والرومانسية والرمزية وغيرها من الألوان . وهو الذى خلق ذلك اللون الهادئ المتزن ، الذى يمثل الطبيعة المصرية صادقة ، وعُنى بالريف والطبقات الشعبية ، كما عنى بالرجل العادى ، وحاول أن يمزج الفن بالأخلاقية ، ويهدف إلى تربية النشء بالقصص .

وكان إلى هذا معتدل الرأى ، لم يسرف ولم يتطرف ، ولم تحمل قصصه أى لون من ألوان الحقد على المجتمع أو السخرية بالإنسانية، أو الذهاب مذهب هواة الكشف والاستهتار وإرضاء الغرائز والاستجابة لرغبات الجماهير .

مستقبل الأدب العربى

ويمكن أن يقال فى إجمال : إن الأدب العربى الحديث قد تطور فى هذا النصف الأول من القرن العشرين تطوراً واضح القسمات ، بعيد المدى . وإنه قد بلغ حداً لابأس به من الكمال والجودة ، حتى يمكن أن يقال بحق إنه يضارع فى بعض جوانبه الآداب العالمية الأخرى .

والمزية البارزة له أنه لم يتوقف، وأن معالم التطور والتجويد والقوة تنتظمه من جميع نواحيه ، وتدفعه إلى الأمام دفعاً ، وأنه قد احتفظ بكيانه قويا، فلم يتبدد تحت ضربات الفكر الجديد ، وإنما أخذ منه وهضم ، وحوّل العصارات الجيدة إلى كيانه الخاص المستقل .

وأعتقد أنه لن يمضى وقت طويل حتى يتمكن الأدب العربى من أن يقتعد مكانه المرموق فى صدر الأدب العالمى والإنسانى .

— ٢ —

أثر الأسرة التيمورية فى الأدب العربى

انتظم فضل الأسرة التيمورية على الأدب والعربية طوال هذا النصف الأول من القرن العشرين، فكان «لتيمور باشا» أثره الواضح فى ميدان الأدب والفكر... كما كان للسيدة «عائشة عصمت تيمور» مكانها المعروف فى النهضة الفكرية النسائية، وإن اختطفها القدر فى مفتتح القرن .

ثم جاء دور «محمد تيمور» ... باكورة التجديد فى المسرح .

ثم مضى «محمود تيمور» إلى آخر الشوط ، فكان الرائد الأول فى القصة العربية الحديثة .

وهكذا... كانت الأسرة التيمورية موضع التقدير الأدبى خلال هذه الأعوام الخمسين ، انتظم جهادها الموصول ميادين الفكر والأدب والقصة والشعر جميعا.

كانت «عائشة تيمور» قبل مفتتح هذا القرن الرائدة المثلى للشعر النسائى الحديث ، والمرأة الأولى فى تاريخ الأدب العربى الجديد ...

وكان «تيمور باشا» خلال ربع قرن أو أكثر... رجل التحقيق العلمى ، والباحث المنقب ، والمجاهد العامل فى سبيل القضايا الإسلامية .

وكان «محمد تيمور» فى مدة تحسب بالكيف لا بالكم ، المجدد للمسرح ، والرجل الجرىء على الأوضاع الفنية القديمة ...

ثم برز بعد ذلك « محمود تيمور » ، فشغل الصحف ودور الطباعة بإنتاجه الوافر الزاخر الذى صدّرت به المجلات صفحاتها منذ ربع قرن أو يزيد . ثم ظهرت تلك المجموعات الرشيقة الأنيقة تضم هذه القصص ... وتحنو عليها .

وهكذا جاهد التيموريون فى سبيل الأدب والفكر والشعر والقصة ، وكانوا قادة وصدورا وروّادا .

فإذا سُجل التاريخ الأدبى لهذه الأعوام الخمسين ، لم يستطع مؤرخ منصف أن يغفل هذه الآثار الحافلة القوية التى قدمها أفراد هذه الأسرة الكريمة ، هذه الآثار التى تتسم بالتجديد والابتكار ، كما تتسم بسمة المحافظة والخلق والتدين .

أحمد تيمور باشا :

كانت الفترة التى قضاها المغفور له «أحمد تيمور باشا» منذ مفتتح القرن العشرين إلى وفاته سنة ١٩٣٠ هى أخصب فترات حياته العلمية ، رحمه الله .

ولازال «درب سعادة» يسجل للأجيال ذلك «الصالون» الأدبى الذى كان يعقد فى قصر «تيمور باشا» والذى كان يحضره عشرات من كبار الرجال والأقطاب والمفكرين فى «القاهرة» أمثال : البارودى وصبرى ومحمد عبده وحسن الطويل والببلاوى والشنقيطى الكبير وأبو خطوة وشاكر والكواكبى والكاظمى ورفيق العظم والسيد رشيد رضا .

ولا زالت « دار الكتب المصرية » التى تقع قريبا من « درب سعادة » تفرد للخزانة التيمورية مكانا فسيحا ، تدهش حين تطالعه ، لوفرة المؤلفات والمجلدات والآثار التى خلفها هذا الرجل العظيم .

ثم تحـول هذا « الصالون » الأدبى إلى « عين شمس » ، ثم إلى قصر « الحلمية الجديدة » ، ثم إلى «الذهبية النيلية» ، ثم إلى قصر «الزمالك» .

ولقدعاش «تيمورباشا» هذهالفترةمن حياته أشبه بعابد فى صومعة ، يعكف على أوراقه وكتبه ومحابره للتحقيق والتأليف والبحث، ويعمل للعربية والإسلام

ولقد شارك «تيمور باشا» فى الحركات الإسلامية التى كانت قائمة إذ ذاك ، ووجّهها وأعانها على المضىّ، وكان من كبار القائمين على مشروع «جمعية الشبان المسلمين». وقدسمعت من بعض المجاهدين الذين اتصلوا به ، مايؤكد صدق عزيمته فى الـكفاح الصادق فى سبيل العروبة والإسلام .

وقد كان «تيمور باشا» يؤمن بالجامعةالإسلامية ويعمل للعربية والقرآن فى صدق عزيمة ، وإخلاص نية ، وصفاء قلب . وكان إلى ذلك محافظا لا يؤمن بالجرى وراء الحضارة الأوربية على طريقة التهافت ...

وكان فى جملته ينحو نحو الأستاذ الإمام « محمدعبده » ، ويهدف لتحقيق آمالهوآمال السيد «جمال الدين» فى الإصلاح وجمع كلمة المسلمين .

أمامؤلفاته فقدتنوعت حتى لتعدّ موسوعة كاملة ودائرة للأدب العربى تاريخه ولغته. فمن مؤلفاته: التصوير عندالعرب، وأبو العلاء المعرى، والأمثال العامية، ولعب العرب، وأوهام الشعراء ، وتراجم أعيانالقرن ١٤ الهجرى. إلىغير ذلك من الأبحاث العربية النفيسة .

وكانت عنايته موجهة بصفة خاصة إلى مراجعة المعجمات اللغوية وأمهات كتب الأدب والتاريخ . وقد صحح: القاموس المحيط ، ولسان العرب ، ووضع

معجم اللغة العامية . وهى آيات ثلاث تكفى لتخليد ذكرى هذا القطب العربى الكبير .

وقد عرف بالسياحة والرحلة ، فسافر إلى «أوربا» ، ولم يرفع طربوشه عن رأسه فى كل عاصمة دخلها ، على حد قول السيد «محب الدين الخطيب» . وكان يؤرخ بالتاريخ الهجرى.

وتحوى الخزانة التيمورية ثلاثة عشر ألف كتاب ، نصفها مخطوط أو مصور ونصفها مطبوع . وتمتاز هذه الكتب بأنها من النفائس المختارة. وقد عنى بنقل أغلب هذه المؤلفات من مكاتب «أوربا» بالفوتوغرافية ، وقد طالع هذه المجلدات وسجل عليها ملاحظات غاية فى القوة .

وكتب رحمه الله عشرات المقالات فى الصحف والمجلات ، ومنها : المؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والأهرام والهلال والزهراء .

وآثار «تيمورباشا» تتسم بالإحاطة والشمول ، كما كانت محادثات «صالونه» تغلب عليها المطارحة والمناقشة فى فنون الأدب والعلم المختلفة .

عائشة التيمورية

شاعـرة استهلت النهضة الأدبيـة النسائية فى مصر والشرق أروع استهلال ... فهى محافظة متدينة ، بارعة التصوير لمشاعرها وآلامها ، صادقة التعبير ، جزلة الأسلوب ... قادرة على بلوغ غاية ما فى نفسها بالقريض ... يغلب على شعرها مسحة الصوفية ، ولها شعر صوفى تمتدح به النبى ... تأثرت بها الكاتبتان : أمينة نجيب ، وباحثة البادية (ملك حفنى ناصف) .

ونظمت قصائد منوعة بالعربية والفارسية والتركية ، ضمنت الشعر العربى منها ديوان « حلية الطراز » ، والفارسى منها ديوان « شكوفه » . ولها غير ذلك أبحاث منثورة جمعتها فى كتاب: « مرآة التأمل فى الأمور » ، كما أن لها كتاباً قصصياً هو : « نتائج الأحوال » نحت فيه نحو « ألف ليلة وليلة » .

ولها قصيدتان عصماوان، هما أبرز آثارها الشعرية التى تجرى على الألسنة.. أولاهما ، مطلعها :

بيد العفاف أصون عز حجابى وبعصمتى أسمو على أترابى

والقصيدة الثانية فى رثاء ابنتها « توحيدة » التى توفيت فى سن الثانية عشرة ، مطلعها :

إن سال من غَرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور

ويمكن القول بأن السيدة «عائشة» قد تفوقت فى شعر الرثاء تفوقا واضحا .

وتروى عن نفسها أن والدتها وجهتها إلى التطريز والنسج ، فضاقت بهما، إذ كان قد حبب إليها القلم والقرطاس .

محمد تيمور :

نزل «محمدتيمور» توا إلى الميدان...بعدأن سافر إلى «أوربا» وشاهد المسرح الحديث... ومن ثم أخذ ينشر قصصه ذات التوجيه التعليمى والإصلاحى .

فقد كان « محمد تيمور » رحمه الله واقعيا ... ولم يجد حرجا فى أن يترك مكانه فى «القصر» ليأخذ مكانه على المسرح، وفى بيئة الفن. وكان جريئاً فى قصصه ومسرحياته ، كما كان جريئاً فى هذه الخطوة .

وقضى « محمد تيمور » باكرا قبل أن يتم رسالته ، وكان كثير من النقاد والمؤرخين يتفاءلون بالتطور والتحول الذى كان يُنتظر للمسرح المصرى لو أن هذا الرجل طال به العمر …

على أن المؤرخين لايذكرون تاريخ المسرح ولا تاريخ القصة دون أن يضعوا جهود هـذا الرجل على رأس القائمة ، ويعدونها الأضواء الأولى التى سار على هداها كل من جاء بعده .

عاد المرحوم «محمد تيمور» من «أوربا» قبيل الحرب الأولى محملا — كما يقول شقيقه «محمود بك» —: « بشتى الآراء الجريئة ، وكان يتحدث بها إلىّ فأستقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تفاوت : عاطفة الحذر وعاطفة الإعجاب . هذه الآراء كانت وليدة نزعة ثورية قوامها جحود القديم … ولكن حدّتها أخذت تهدأ على توالى الأيام . ومن ثم اتخذت طريقها الطبيعى فى التطور . والأمر الذى كان يشغل فكر أخى ورغب فى تحقيقه ، هو إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى وحيه من دخيلة نفوسنا . »

وتوفى رحمه الله سنة ١٩٢١ وهو دون الثلاثين .

الرحـــالة

أميز مايلفت نظرى إلى حيـاة كاتب أو شاعر أو زعيم ... هو رحلاته وأسفاره . وهى عندى مقياس دقيق لتكوين الشخصية ، وضياء كشاف لمعالمها وأهدافها ... فإذا رأيت حياة كاتب ما بدون أسفار ، قدرت مدى الانطواء والقصور الذى يرتبط بحياته وأفـكاره وأهدافه .

وليس من شك أن الرحلة تزيد حياة الإنسان اتساعاً وخصوبة ... حتى لتبدو عريضة غنية ... ولن تغنى الـكتب والصور عن رؤية الأماكن وارتيادها ... واحتمال أعباء السفر والهجرة ... ومشاق القطارات والانتقال بالبر والبحر والجو .

وأنت ترى « محمود تيمور » على نحافة جسده، وعلى مايبدو من بعض آثار انحراف صحته ، دائب الأسفار كثير التنقل، حتى لايمر صيف، إلا ماندر، دون أن يذهب فى شرق الأرض وغربها ...

ينتقل بالبحر تارة ، وبالقطار تارة ، وبالطائرة تارة أخرى . وقد تنوعت رحلاته إلى «أمريكا» وإلى «أوربا» وإلى بعض بلاد «آسيا» . والـكاتب حين يرحل يحمل معه روحه ونفسه وقلمه ... فلايفيد من أسفاره إلا بقدر مايفيد قارئه ... فهو ينقل مشاعره على الورق ، ويسكبها على القرطاس ، حتى ليخيل إليك وأنت تقرؤه ، أنك ماض معه، مطوّف فى البلاد والأنحاء .

وقدا كتسب «تيمور» من الرحلات ذلك الحديث الطريف والسمر الحلو ، حين تجلس إليه فى ساعات الصفاء ، فيحدثك عن «شلالات نياجرا» أو مباهج «باريس» أو جبال «الألب» .

وإن كان الكاتب عادة ضنينا بما يرى ، لا يريد أن يفصح به إلا لقلمه وأوراقه ، فيضمنه قصصه وروائعه .

وإذا كان «تيموربك» قد أفاد من أسفاره هذا متاعاً نفسياً لاحد له ، إذ رأى ذلك العالم الزاخر بالصور والحضارة والأفكار ، وصادف عشرات المفكرين والباحثين والمثقفين ، واتصل بألوان من الناس ... وشاهد عشرات الطرز للعمائر والأبنية والمتاحف والقصور ... فإنه قد أفاد لأدبه وإنتاجه وفنه ذخيرة كبرى ، هى رصيد لمادته المنوعة العجيبة التى تجمعها قصصه ، حين تراه ينتقل بك من مشهد إلى مشهد ، ومن لون إلى لون .

سافر « تيمور » فى مطلع الصبا إلى « باريس » ... ثم عاود أسفاره إلى «أوربا» عدة مرات ، واستقر فى بعض الفترات فى «سويسرا» ، وأمتع نفسه بمنظر الجبال الضخمة الشماء ، وكتب هناك بعض قصصه . ولا زلت أذكر قصة له سنة ١٩٢٩ أرسلها من هناك إلى مجلة «الهلال» ، واستوحى هذه البلاد أيضاً فى بعض قصصه الأخر ، مثل: « صحبة الورد » .

انظر إلى «تيموربك» وهو يتحدث عن أسفاره وأثرها فى تكوينه الأدبى :

« سافرت فى تلك الفترة ــ سنة ١٩٢٥ ومابعدها ــ إلى «أوربا» ، ومكثت بها حينا يزيد على العامين ، قضيت معظمه فى «سويسرا» ، فتفرغت للقراءة ،

واتصلت بالأدب الأوربى الحديث أقرب اتصال ، وطالعتنى أثناء إقامتى هناك مرئيّات ومناظر هزت نفسى وتغلغلت فى صميم قلبى . كما أن خبرتى بالحياة ومعرفتى لها قد اتسعت وتنوعت، فكان لهذه الحياة الجديدة التى عشتها هناك أثر لاينكر فى تطور تفكيرى . ورأيت على ضوء مطالعاتى الجديدة وفهمى لنظريات الأدب العالمى أن اللون المحلىّ ليس كل شىء، بل هو بعض الشىء ، وما الأدب الكبير إلا أن يولى الإنسان وجهه شطر النفس البشرية ، فحولت اتجاهى نحو هذه الوجهة ، محاولا التقدم فيها ما استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وهكذا كانت الرحلة حافزا «لتيمور بك» على الاتجاه الجديد نحو الأدب الإنسانى !

ثم سافر أخيراً إلى «أمريكا» ... فكتب كتابه الرائع «أبو الهول يطير» وقد صور فيه الحياة الأمريكية تصويراً رائعاً دقيقاً ، فياضاً بالقوة والإحاطة . ويعدّ كتابه هذا هو كتابه الأول عن الرحلات .

وهو لايقل عن أى كتاب من نوعه من كتب الرحلات فى الأدب العربى الحديث ، وفيه تتمثل شخصية « تيمور » المغامرة المجازفة التى نَضَتْ عنها ذلك السكون والصمت ، وأخذت تجوز الآفاق . وإذا به يركب الطائرة فيعبر المحيطات إلى «أمريكا»، ثم يظل يتنقل فيها من مكان إلى مكان ، يشاهد ويسجل ويكتب ... انظر إليه يصف الطائرة « أبو الهول » :

«...وتسامى بنا صديقنا الكبير يضرب فى عرض الأفق وقد اتقد حمية وحماسة، ورأينا السحب تنبسط على صفحة المحيط وتغدو كأنها بساط من جليد ... حقاً ،

إنها لنزهة ليس فيها مايعكر الصفو، فقد امّحى من أذهاننا ما كان مستقراً فيها من أهوال عبور المحيط وما يعترضه من مخاطر ... وظلت الشمس تسايرنا طويلا من الوقت ، فلم تأذن لنفسها فى المغيب إلا بعد التاسعة والنصف ، وانتشر على أطراف ذلك البساط الثلجى الناصع لهيب أنفاسها المحترقة ، فهب الليل يرسل شملته الحالكة ، يحاول أن يطفىء بظلامه لهيب تلك الأنفاس ... »

إنه أسلوب الرجل الذى عرك الرحلات ، وشاهد البلاد عشرات المرات ، فلان قلمه للإفاضة فى تصويرها دون جهد أو ملال !

وقد أعان « تيمور بك » على رحلاته هذه وقته الفسيح ، وماله الموفور ، وقد رصدهما لفنه الرفيع ... يتنقل بين الأفانين ، تمده روحه المصقولة ، وطبعه الهادئ ، وروحه الملهمة ، وبصيرته النفاذة بألوان الإنتاج .

ولن تستطيع أن تنسى وأنت فى معرض الكلام عن رحلات « تيمور » قصته «نداء المجهول»، فقد كتبها فى «لبنان» ، فى خلال رحلة من رحلاته الصيفية إلى هناك .

وفى «لبنان» يتجلى جمال الطبيعة وفنها وروعتها... بحيث ترغم الفنان على أن يكتب ويسجل .

وإنى حين أقرأ «نداء المجهول» أتصور «تيمور بك» وقد أخذ مجلسه إلى تلك المنضدة فى حديقة من تلك الحدائق الجبلية المغردة ، والأشجار من حوله تهفهف، والنسيم يملأ الكون بشذى الزهور، والأطيار توسوس، ومياه النافورة تنسكب كدموع السماء، ولها صوت حفيف رقيق... وقد أخذ «تيمور بك» أوراقه وأخذ يعب

من رحيق الوجود المسكر ... ومضى يسجل ملاحظاته ، ويقيد تلك الأطياف الروحية التى ترد على نفسه ... وتفد على خياله !

هاهو ذا فى «لبنان» يصف الكوخ والجبل والنبع :

«هدوء شامل وهواء جاف يبعث فى الجسم النشاط ، ومعيشة ساذجة قريبة إلى الفطرة .

الفندق أشبه بمنزل ريفى غرس أمامه الشيخ «عاد» بعضا من أشجار الصنوبر والتفاح والعنب وأصنافاً من الأزاهر .

وكانت الجبال الشامخة تحيط بتلك البقعة الوادعة كأنها حراس يخفرونها . والوادى البعيد منبسط أمام الفندق بزروعه المختلفة الألوان ... وعلى سفح الجبل قطعان الماشية ترعى الحشائش الجافة التى تنبت فى جرأة عجيبة بين الصخور ... لا أدرى كم مضى علىّ من الوقت وأنا على هذه الحال . ورأيت الشمس تنحدر الهوينى فى الأفق ، وقد أخذ يبتلعها خضم الضباب القانى المترامى بأطراف الوديان ، الزاحف علينا مع طلائع الليل ، ومرت علىّ نسمة باردة اختلج على أثرها جسدى ، فقمت متباطئا ، وأنا أجمع حولى ملابسى » .

وانظر إليه يصف «الأقصر» فى بعض قصصه :

«وكنت ساعة على رصيف النيل أتملى مغرب الشمس ، وأشباح السفن تنساب على متن الماء غادية رائحة ، تكسوها صبغة الشفق ، كأنها بما تعكسه من ظلال قاتمة تحمل بين طياتها طلائع الليل ...

ثم أدرت بصرى إلى النيل أتبين فى غير وضوح قلاع السفن تميد فى الأفق وكأنها أشباح مخيفة توشك أن تهجم علىّ ...

وتناهت إلى سمعى أصوات المجاديف ، وهى تقرع المـــاء قرعها المتواتر فيبعث فى نفسى الوحشة والاكتئاب . »

هكذا يقول « تيمور » الشعر ... فى غير قواف ... وهكذا تشرق هذه النفس الطامحة ، عند ما تتملى حسن الطبيعة وجمال السكون !

وها هو ذا يصف «باريس» فى كتابه « أبو الهول يطير » :

« أفى «باريس» الضاحكة نحن حقا ؟

وبدأنا نخترق ساحة «الكونكورد» التى كانت فى الزمن السالف تتألق ، وتلبس حلة بهية من الزخرف ، فإذا بها اليوم قد ران عليها خمول، لا يرى منها إلا مصابيح هزيلة شحيحة الضوء ...

وبدت المسلة المصرية وسط ذلك التجهم شامخة متطلعة فى ترفع وإباء كالنبيل المصفد بالأغلال ...

إنها هى وسط الظلام والسكون، كما كانت هى وسط الأنوار السواطع والحركة الدائبة ... هى هى الصموت الأبيّة تنتظر فى صبر وأناة ساعة الخلاص ، ساعة الأوبة إلى أرض الوطن ... »

وتلك هى «سويسرا» كما يصفها :

«إذا قلت «سويسرا» فقل من فورك : بحيرات ورواسى وأدغالا ومسايل ماء ... ما أحفل هذا البلد بمثاوى الاستجمام !

نزلنا «سويسرا» ، فكأننا حللنا جنة زهراء تحف بها ألسنة من لهب ... طريفٌ هذا البلد فى مصايفه ومشاتيه التى يتودد لها النـــاس من أقطار الأرض جميعا . فى مشاتيه تمتع بمسارح الثلوج، وفى مصايفه تَبْهج بالغابات والبحيرات » .

ثم أخذ يصف المنظر من الطائرة :

« ولاحت معالم « سويسرا » تحت الأنظار ... جبال شوامخ تعتمّ قممها بناصع الجليد، كأنها نسّاك من الشيوخ يتعبدون، عليهم جلالة ومهابة ، ترفّعوا عن زحمة الحياة وضجيج الأرض .

وهنا وهناك نقط متناثرة، تلك هى البحيرات السويسرية ، تشخَص إلينا ملتمعة ، كأنها أعين الغوانى تحاول أن توقعنا فى حبائل الفتنة والسحر » .

ثم يصف «تيمور » بحيرة «ليمان» وجلسته إليها :

«جلسة رخية تجاه بحيرة «ليمان» ... فى «لوزان» .

أتطلع إلى هذا المشهد الخلاب الذى يتألق لعينى تحت أشعة الشمس، وأرى القرى تتناثر على الشواطئ ممتدة فى صعودها على سفوح الجبال، تكتنفها المروج والغابات .

لبحيرة «ليمان» خصائص عجيبة ، إنها متحولة متبدّلة ، لا يستقر لها حال، فهى تتشكل وتتلون ، وفقا للجو فى تطوره واختلافه ...

وإن مشهد البحيرة فى كل طور ليختلف أبين اختلاف عنه فى سائر الأطوار . حتى إنك لتنكر ببصرك ، أو تستريب بمشاعرك ، فيخيل إليك أنك بين يدى بحيرة سحرية يتلعّب بها جنىّ عتىّ ...

هى فى بواكير الشروق غيرها فى وهج الظهيرة .

وهى فى ذلك الوهج غيرها فى فترة الأصيل .

وكأنما هى تخلق خلقا جديدا حين تنسدل أستار الظلام، أو تتكاثف أطباق الغيم والضباب .

ليست البحيرة إلا لوحا فنيا رائعا يتجدد فى كل وقت ، فإذا صفا الجـو وسطعت الشمس قوية الشعاع ، وصحت السماء صافية الزرقة لاتشوبها رقعة من السحب ، برزت لك الجبال جلية المعالم ناطقة الملامح ، كأنك تشهدها خلف مجهر . وتوضحت لك الألوان نيرة مشرقة ، فهذه خضرة ناضرة ، وذلك صقع قاحل ناتىء الصخور والأحجار . وتلك قمة ثلجية ناصعة . ودونك صفحة الماء ملتمعة لناظريك كمرآة مصقولة مجلوة ، تهتز صفحتها بين الحين والحين تحت الشمس الساطعة ، كأنها حسناء متجردة تهتز خفرا واستحياء ، إذ يباغتها ضوء كشاف . فإذا تلفعت السماء بغيومها ، وتهاوت السحب على هام الجبـال تخفى قممها، وشح الضوء ، وشاعت فى الجو سارية من القُرّ تحمل معها الغموض والخفاء ، ألفيت صورة البحيرة قد شحبت ألوانها ، وغشيتها وحشة ورهبة وانقباض ...

أمواج رجراجة تعلو وتهبط عليها غبرة ، وجبال قد اختلطت معالمها ، لا تدرى أمورقة الجنبات هى أم ماحلة جدباء ؟ »

وهذا « تيمور » فى «أمريكا» :

« وانصرفنا من الجمرك ، خَلْفَنَا الزنوج يحملون حقائب المتاع ، وركبنا سيارة أجرة ذكرتنا بفخامتها وأناقتها عربة الخيـل التى طافت بنا أحياء « باريس » ، (وبضدها تتميز الأشياء) .

وأحسست مشاعرى تهتز وتهتاج اهتياج مشاعر الطفل أمام جديد مستور بدأ ينكشف له .

وثارت بى ثورة تطلع وفضول ، فكنت أبعثر النظرات حولى فى تعجل ، أخشى أن يفلت منى شىء ، فإذا بى يندّ عن نظرى أعظم شىء ... إنها رقعة من الأرض شاسعة ، خُطت فيها طرق ممدودة معبدة تنتهبها السيارات انتهابا ، وإنها جسور عظيمة تعلو بنا وتهبط ، فتتقاذفنا جسراً بعد جسر ... ولكن أية جسور هذه ؟ أعلى الماء هى أم على أديم الأرض ؟ لا أكاد أتبين الأمر !

وبدأنا ندخل منطقة المبانى ، فكلما أوغلنا فيها تكاثفت وتعالت ، ورأينا الطرق تزدحم بالسابلة ، فأخذت سيارتنا تهدئ من سيرها ، حتى ألفينا أنفسنا بين نواطح السحاب .

وخيل إلىّ أننا فى سفينة بدأت تجتاز خليجا تقوم على جانبيه شوامخ الجبال .

إنه حقاً لشعور غريب ذلك الذى يستولى على المرء حين يشرئبّ بعنقه وهو يمر بين هذه الصروح الشاهقة .

إن المرء ليحس بنفسه قد تصاغر وتكمش أمام تلك المدينة الماردة العاتية .

فى لحظة واحدة تتجلى لنفسك عظمة «أمريكا» الجبارة .

هذه الآطام العالية تركز لك فى مظهرها حقيقة «أمريكا» بمدنيتها، ثروتها، عقليتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ؛ ما ظهر من ذلك كله وما بطن .

ما أروع الحجارة الصامتة فى الإبانة والإفصاح !

لقد بلغنا باب الفندق .

ودلفنا إلى الردهة الكبرى .

ووقفت أتأمل الردهة المضاءة بالـكهربا ومن يختلف إليها من الناس .
وراعتنى المصاعد لا تهدأ لها حركة ، فهى دائبة الصعود والهبوط . »

وهكذا ...

فى كل مكان ، يكسب الأدب من أسفار « محمود تيمور » ، أضعاف ما يكسب من مئات الذاهبين إلى «أوربا» أو «أمريكا» ...

« تيمور بك » رحالة وصاف .

أعطته الرحلات زادا فنيا قويا ، وأسلوبا رائعا ، وأمدت روحه بالفن والجمال !

— ٤ —

مفتـاح شخصيته

يندر أن نجد بين شباب أسرنا الموسرة من يجرد نفسه للأدب والفن كما فعل «محمود تيمور» ... فإن هؤلاء فى الغالب يكتفون بما بسط الله لهم من الرزق، وينصرفون عن كل ما من شأنه الإجهاد ، وإذا اتجه أحدهم نحو الأدب فإنما يكون ذلك فى الغالب مقصورا على مكتبة أنيقة، وصحبة طيبة من الأدباء، وحديث أشبه بلغو القول يدور حول الشعراء والكتاب !

وقلما تجد أحداً من هؤلاء صادق الاتجاه ، أو جيد الأسلوب ، أو منكبا على العمل ، أو مستهدفاً غاية محددة !

و « محمود تيمور » يختلف كثيراً عن هذا النوع .

فهو غنى ميسور ، من أسرة لامعة عريقة النسب ، ولكنه حين اتجه نحو الأدب والكتابة فى مطلع صباه ، استهدف عملا معينا وأخلص له ، وشغل نفسه به ، وأعد أدواته ، وكان إلى ذلك قد وهبه الله أسلوبا ممتعا ، رقيقا ، كالزهر الندى ، وعاطفة خصبة حية ، وقلبا طروبا خفاقا ، ونفسا يغلب عليها الخير والسمو .

فأخذ يكتب ، ويغمر الصحف بقصصه ، قرابة ثلاثين عاما ، لا يتوقف ولا يتراجع...

وظل يقرأ ويطالع، ويتصل «بالصالونات» الأدبية العالمية فى لندن وباريس

وغيرها ، ويتصل به الأدباء الأوربيون والمستشرقون وأولو الرأى فى دوائر الأدب والفكر .

وبريده الأدبى منوّع ، مطرد ، لا ينقطع .

وهو لا ينى يطالع كل ما يكتب باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية من الآثار الجديدة ، ويكتب فى صحف القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت ...

وقد رتب وقته وقسمه بين الرحلة والقراءة والكتابة ، فأوفى لهم جميعا ، كل بنصيبه المقسوم المبرور !

كان قد مرض فى مطلع شبابه « بالتيفوئيد » :

« وكانت وطأة المرض شديدة علىّ ، فلزمت الفراش ثلاثة أشهر قضيتها فى ألوان شتى من التفكير وأخلاط من الأحلام ، واستطعت أن أهضم الكثير من الآراء التى تلقيتها من أخى ، أو استمددتها مما قرأته من الكتب . فلما أبللت من مرضى ، وأردت استئناف دراستى العالية ـ وقد كنت بدأتها فعلا ـ حال دون ذلك ضعف بنيتى . فعشت فترة من الزمن متعطلا ، وأطلقت لنفسى عنان الحرية ـ شيئاً ما ـ فخرجت عن الكثير مما كان يقيدنى من تحفظات الأسرة ، وشعرت باشتداد ميلى إلى الأدب، فرسمت له دراسة شبه منظمة ، وخصصت له وقتاً معيّناً من وقتى ، فكأنى قد أردت بهذه الخطة استكمال النقص الذى لحقنى من انقطاع دراستى العليا .

فمما لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية طور جديد فى حياتى الأدبية نقلنى من دور التردد إلى دور التيقن ، ومن دور الإلمام والهوادة فى التحصيل إلى دور الجدّ فيه والاستيعاب ... »

والذى نستطيع أن نقوله ، أن «تيمور» بعد ذلك انصرف انصرافاتاماإلى الأدب والقصص ، حتى ليمكن أن يقال فى غير مواربة ولا مجاملة : إنه فى «مصر» الكاتب الأول الذى أخلص نفسه للقصة، وعاش لها، ووقف عليها فنه وكفاحه ، وظل يعمل فى ميدانها ، حتى ذلت له ، وحتى دان الأدب العربى الحديث بوفرة إنتاجه وخصوبة بيانه ...

وأستطيع أن أقطع بأن كاتبا ما فى «مصر» لم يقف نفسه على الفن القصصى فيؤلف فيه وعنه بضع عشرات من المجموعات الأنيقة الممتعة غير «محمود تيمور».

فكل كتّابنا القصصيين جمعوا إلى ذلك فنوناً أخرى من أدب المقالة أو السياسة أو غيرها من الفنون .

أما «تيمور» فبالرغم من جمال بيانه وحلاوته ورشاقة تعابيره، فإنه وقف نفسه لفنه الذى أحبه وأولع به وأخلص له ... وحتى حين كتب تلك اللمحات الخاطفة عن بعض الشخصيات ، كان قصصيا لا يتنكر لفنه ولا لطبيعته .

وتألق « محمود تيمور » وخطبت وده الصحف والمجلات ، فوهبها إنتاجه دون مقابل ، فهو الكاتب الوحيد فى «مصر» الذى رفض أن يأخذ أجراً على شىء مما يكتب فى الصحف والمجلات .

وارتفع مرة أخرى ، فمنح جائزة المجمع اللغوى الأدبية ، وتوّج المجمع أعماله القصصية ، ثم اختير عضواً فى المجمع نفسه ، وأدخل فى سلك الخالدين ، وأصبح فى عداد زعماء العربية الكبار ، وفاز أخيراً بالجائزة الملكية الكبرى للأدب .

أعتقد أنه من الكلام المعاد الذى قيل مرات ومرات عن «محمود تيمور» ، أنه نشأ فى بيئة حملت لواء العلم والفكر والأدب ـ والده العالم الكبير «أحمد باشا تيمور» صاحب «الصالون» الأدبى الكبير . وعمته الشاعرة الفضلى «عائشة تيمور» رائدة الأديبات والشاعرات فى العهد الجديد . وشقيقه « محمد تيمور » ، الرجل المجدد الذى ترك «القصر» واقتحم المسرح ، فألف فيه بالعامية وعالج موضوعات مستخلصة من حياتنا المصرية فى فن جديد ، امتاز بوصف مبدع ، وتحليل دقيق ، وأسلوب جذاب ؛ ومارس كتابة القصة ، فاستحدث طريقة تكاد تكون غير مألوفة فى أدبنا فى ذلك الوقت . ونظم الشعر ، فترجم فيه عن إحساسه المرهف ، وألف فى النقد المسرحى ، فابتدع لونا جديدا مرحا فيه هزل وفيه جد . وعلى الجملة كان أدب « محمد تيمور » أدبا مبتكرا ، مادته الحياة المصرية والنفس المصرية .

ولكن إذا كان هذا من الكلام المعاد بالنسبة للبيئة التى وجد فيها « محمود تيمور » ، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل أثر شخصية « محمد تيمور » فى أدب « محمود تيمور » .

وعندما كنت أحدث « تيمور بك » ، وجاء ذكر « محمد تيمور »، رأيته يبدى الإعجاب الوافر والتقدير الكبير لشخص شقيقه الراحل ...

وهو لا يلبث كلما كتب عن أدبه أو مصادره أو الآثار الكبرى فى حياته الأدبية أن يذكر « محمد تيمور » .

وفى هذا يقول :

« كنت أستنير فى مطالعاتى بهداية شقيق ، فنصح لى فيما نصح أن أطالع «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى ، ورواية « زينب » للدكتور «هيكل» ، فرأيت فيهما لونا يختلف عن اللون الرمزى الرومانسى الذى كنت غارقا فيه ، لونا واقعيا يهبط بالقارئ من سماء الخيال العليا ـ حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ـ إلى الأرض التى نحيا عليها ، حيث نرى النـاس بشرا مثلنا على فطرتهم التى خلقوا عليها . »

ثم يقول : « . . . وامتدح لى شقيق غير مرة « موباسان » الكاتب الأقصوصى الفرنسى ، فبدأت أطالعه ، وما كدت أقرأ له مجموعة حتى فتنت به، وتابعت قراءتى إياه فى شغف عظيم ، واتسعت مطالعاتى فيما بعد فى القصص الأوربى وتشعبت . »

ثم يقول : « . . . كتب « محمد تيمور » أقاصيصه: « ما تراه العيون »، وقد نحا فيها نحو المذهب الواقعى ، وصوّر فيها مناظر مختلفة من بيئتنا المصرية وأشخاصها ، صاغها أقاصيص جمعت بين فن مبتكر وأسلوب رشيق سهل . فأعجبتُ بها إعجابا دعانى إلى أن أؤلف على غِرارها ، فكتبت باكورتى فى القصة: « الشيخ جمعة » ثم أردفتها بأقصوصة: « يحفظ بالبوستة ». وكنت قد أهملت الشعر المنثور ، فاندفعت أكتب مترسما فى كتابتى المذهب الواقعى، وذلك بتأثير الجو الجديد الذى نعيش فيه ، وما كنت أقرؤه من قصص على هذا المذهب ، وكنت لا أحفل بالأسلوب احتفالى بتصوير الواقع . »

هكذا كان أثر « محمد تيمور » فى اتجاه « محمود تيمور » .

ثم لا يلبث القدر أن يصرع هذا الشاب المجدد المتدفق بالحماسة والموهبة . ومن ثَمَّ يرى « محمود تيمور » أن عليه واجبا مقدسا ، أن يكمل رسالة « محمد تيمور » ... ولكن فى الحدود والأوضاع التى تتميز بها شخصية « محمود » .

يقول : « وفجعنى القدر وقتئذ فى شقيق « محمد » وهو فى ميعة صباه وشرخ شبابه وتألق أمانيه ، وشعرت بعد موته بانهيار أمله الكبير فى إنشاء أدب مصرى جديد ، كثيراً ما كان يحدثنى عنه فى حماس ويقين ، ودهمنى اليأس، ورأيت نفسى أضعف من أن أخلفه فيما كان يبشر به ، فخلدت إلى السكينة ، وقد توقعت الفشل . وتوالت الأيام ، وبدأت عجلة الحياة القاسية تسير فى طريقها ، لايعنيها من أمور العالم إلا استكمال دورتها ، فأخذت الجروح تندمل ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الروح فى الجسد ...

ورأيت نفسى قد نشطت للعمل ، واستجمعت من ضعفى قوة تقدمت بها فى ميدان التأليف ، وقد انطلقت أنفض عن نفسى اليأس، وأقصى شبح الفشل، معتمداً على نفسى ، مهتدياً بهدى شقيق الراحل . فكنت أعمل وكأنى مندفع بباعث من واعيتى الباطنة إلى استكمال ما كانت تصبو نفس شقيقى إليه لو أتيحت له الحياة ، وكنت أحس أننى بهذا العمل أرضى روح شقيقى وأقرئها واجب التحية والإجلال . »

ولا غلوّ فى القول بأن « محمود بك » أتم رسالة شقيقه « محمد » . فقد مضى فى نفس الطريق الواسع الذى بدأه شقيقه ، ولكنه كان له من استقلال شخصيته ، ومن طبيعته الخاصة وسرائره النفسية ، اتجاه أقرب إلى الابتداع والتحرر من كثير من القيود والأوضاع التى سار عليها « محمد » .

فهو فى الحق قد كتب فى القصة وأجاد ... واستهدف واقعية « محمد » ولكنه يختلف عنه ولاشك فى ملامح الروح التى ينفرد بها كل كاتب عن الآخر ، ولو كان شقيقه .

وهو قد ألف المسرحية ، ولكنه لم يعتل منصة المسرح كما صنع « محمد » وهو قد اشتغل بالقصة والتأليف المسرحى ، ولكنه ظل يعيش فى ثياب رجل «القصر» الأرستقراطى...أما «محمد» فقد هجر «القصر» ، ونزل إلى الشارع، وعمل مع الممثلين !... وكانوا يومئذ غيرهم اليوم !

ليس فى هذا ما يضير « محمود بك » ، ولا ما يتعارض مع طموحه إلى استكمال رسالة « محمد » . فهو قد أكملها فعلا ... ولكنه وضع إلى جوارها رسالة أخرى ... نبعت من نفس « محمود » ومن كيانه ومن تجاربه وأسفاره ومطالعاته وثقافته وألوانه الروحية والنفسية الخاصة !

وليس قولنا بأن « تيمور بك » قد اعتصم بالحياة فى الأفق الذى نشأ فيه مما يضيره ، وما كنا لنطلب إليه أن يفعل ما فعل « محمد » ... فذلك ما لا يدخل فى تقديرنا ... وإنما نستطيع أن نقول إن « محمود بك » بالرغم من أنه عاش فى بيئته الخاصة ، فقد اختلط بالحياة أوسع اختلاط ، والتمس أدق خفاياها ، وعرف الكثير مما يجهله من يعيش فى محيط الطبقات الوسطى والصغرى .

وشأنه فى ذلك شأن الواقف على الشاطىء ، يشاهد أكثر مما يشاهد الذاهب فى أغوار الماء !

فلطالما خفيت ملامح الأمور على أهل بيت ، ولكنها استرعت التفات الطارق القادم .

وبعد : فقد كانت شخصية « محمد تيمور » بعيدة الأثر فى نفس « محمود » كما كانت بعيدة الأثر فى تاريخ القصة والمسرح والفن جميعا !

وقد استطاع « تيمور بك » أن ينشىء مدرسة جديدة من الفن القصصى تتلمذ لها الكثيرون ، وسعد بالحياة فى ظل آثارها وإنتاجها الأدبىّ عشرات الألوف من القارئين والمعجبين !

ريشة تيمور

«الأسلوب هو الرجل» :

لتيمور أسلوب أصيل، له خطفات دالة موجزة، هى فى ذاتها موحية دقيقة.

تمضى معه فتؤمن وتتيقن أنه الرجل الذى يعرف أسرار اللغة ويحسن استخدامها، ويلعب بألباب القارئين والسامعين على السواء .

لوحاته الفنية ... صوره المصقولة... يبدو منها الصدق والوضوح والأناقة.

ألوانه وظلاله وأضواؤه متسقة رائعة ...

انظر إلى هذه اللوحة ، لوحة فتاة :

« لم تكن ذات حسن باهر، يجتذبك بروعة القسامة والوسامة ، ولكن روحها الحى المتألق ، كان يسرى فى جسدها اللدن ، فيتضوأ ، ويبث من حوله الفتنة والسحر .

إنك لتحس نور ذلك الروح وحراراته يشف عنهما ذلك الجسد ، كما تحس ضوء الشمس ودفئها خلال غلائل الغيوم . »

وانظر إلى هذه اللوحة ، لوحة من الطبيعة :

« ورأيت الشمس تنحدر الهوينى فى الأفق ، وقد أخذ يبتلعها خضم الضباب القانى، المترامى بأطراف الوديان، الزاحف علينا مع طلائع الليل . »

لن تشك بعد هذا فى أن تقرر معى ـ ابتداء ـ بأن « محمود تيمور » شاعر تحرر من قيود القوافى والأوزان .

نعم ، هو شاعر بحكم طبيعته الفنية الرقيقة المشرقة الطليقة ، المحبة للطبيعة والجمال ، العاشقة للموسيقى والمسرح والأدب والحب .

هـذه الطبيعة الشاعرية الهائمة التى تعيش ومن حولها مظاهر الحسن ، أينما كانت ... فى القرية حيث السماء الصافية والمروج الخضراء ، والندى يبلل الأزهار ، والطيور المغردة ، والغدير ذو الخرير الموسيقى .

وفى قصر «الزمالك» حيث يعيش ، ترى الأشجار متشابكة ، وتستنشى نسيم النيل .

وأيام الصيف فى «الإسكندرية» ، أوفى «لبنان» ، أو فى «سويسرا» ، كلها مظاهر فياضة للجمال على مختلف صوره وألوانه وأنواعه ، تملأ الروح بذلك الرحيق المسكر من الشعور ، وتضيف إلى طبيعة الإنسان الكاتب مزيداً من القوة والصقل .

وشاعرية « محمود تيمور » تبـدو واضحة فى كل ما يكتب . . . و«تيمور» نفسه يشهد بأنه كان يكتب الشعر المنثور فى أول شبابه ، كما أنه يقرر فى محاضرته عن «المصادر التى ألهمته الكتابة» أنه أحب الشعر وكلف به . يقول : « وكان نصيب الشعر وافراً فى مطالعاتى هذه ، الشعر بنوعيه : العربى والإفرنجى ، وخاصة شعر المعاصرين . وكنت أفضل منه غالباً ما كان خياليا مغرقا فى الخيال » .

ثم يتجه « محمود تيمور » إلى النثر ، فإذا به يقرأ الشعر فى النثر : «جبران» ، «المنفلوطى» ، «المويلحى» ... كتاب «ألف ليلة»، وهكذا .

ثم يتجه إلى الأدب الأوربى ، فيقرأ القصص ... والقَصص شعر ، لأنه يتصل بالعاطفة والخيال والحب والجمال وأهواء القلوب !

يقول « تيمور » : « وكانت المدرسة الأمريكية التى أنشأها إخواننا اللبنانيون والسوريون فى المهجر، قد بسطت نفوذها على الأدب المصرى، فأُخذت بها ، وشغفت كبير الشغف بزعيمها « جبران » ذلك الشاعر الرمزى المغرق فى الرمزية .

وكانت «الأجنحة المتكسرة» أول كتاب حظى منى بأوفى حب وتقدير ، فتأثرتُ به أولى كتاباتى ، وجلها من الشعر المنثور ذى النزعة الرومانسية .

وكان «لجبران» وجماعته مجلة تدعى « الفنون » قرأنا فيها حقا لونا جديدا من الأدب ، الأَدب الذى يحاول أن يخرج من نطاق التقليد فى الفكرة والقالب . هذا الأَدب كان يستمد وحيه من الغرب ، وقد استحدث له أسلوبا جديدا خرج فيه عن بعض قواعد اللغة ، ونهج المنهج الإفرنجى ، فاستعذبناه لطرافته وشذوذه عن المألوف . ولا جدال فى أن ذلك الأدب على علاته كان يحوى عنصر التجديد ، فلا يمكننا إنكار فضله ، فهو دم جديد جرى فى عروق أدبنا المحافظ ، فدبَّتْ فيه حياة جديدة ، وكان للقصة نصيب لا يستهان به فى هذا الأدب «المتأمرك» . والقصة — حتى ذلك العهد — بضاعة تكاد تكون غريبة عنا ، فتأثير هذه المدرسة من تلك الناحية من أدبنا ظاهر ملموس . »

وهكذا يظهر فى وضوح كيف اتجه «تيمور» إلى الشعر وإلى الرمزية فى أول شبابه ، ثم أخذ يقرأ « حديث عيسى بن هشام » ، ويتنقل بين اللون الرمزى والرومانسى ، والواقعى. ثم ينتقل من «المويلحى» و«ألف ليلة» و«زينب» إلى الأدب الفرنسى فيقرأ « موباسان » ، ثم يتجه إلى الأدب الروسى فيعب منه !

ويقول : « امتدح لى شقيقى غير مرة « موباسان » الكاتب الأقصوصى الفرنسى . فبدأت أطالعه ، وما كدت أقرأ له مجموعة حتى فتنت به ، وتابعت قراءتى إياه فى شغف عظيم . واتسعت مطالعاتى فيما بعد فى القصص الأوربى وتشعبت ، ولكننى حتى اليوم ما زلت محتفظا «لموباسان» بالمكان الأول فى نفسى ، فهو عندى زعيم الأقصوصة الأكبر .

وفن « موباسان » فى نظرى فن كامل توافرت فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قوية من حيث عرض الموضوع ومعالجته وتحليل شخصياته وتسلسل الحوادث وخواتمها . كل ذلك فى وضوح واتزان . ولا أذكر أننى قرأت له قطعة لم تهزنى .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى القصص الروسى ، فقرأت «لتشيخوف» و«تورجنيف» ومن يماثلهما . فرأيت تأثير « موباسان » واضحا فى بعض إنتاجهم .

ويمتاز القصص الروسى بعنصرى الصدق والبساطة ، فما القصة الروسية غير قطعة منتزعة من نفس صاحبها ومن مشاهداته ، يعرضها فى غير كلفة ولا زخرف . »

من هذه النفس الشاعرة ، ومن هذه القراءات المنوعة المستطردة ، تكوّن

«لتيمور» ذلك الأسلوب الخصب المتع ، المشرق الديباجة ، الذى تراه فى بعض مواضعه أشبه بالسمر النفّاث النفاذ ، حتى ليخيل إليك أنه ليس بالقلم ، بل هو ريشة فنان بارع يرسم بها لوحات غاية فى الجمال والروعة .

تقرأ له فترى روح البشاشة والفرح والمرح .

فهو « شابّ البيان » له من الشباب طلاقته ورشاقته ... وتقرأ له الآن وهو فى العقد السادس فترى بيانه يزرى ببيان الشباب بهاء وإشراقا وروعة .

وتكاد تنتظم أدبه جميعه روح التفاؤل والإشراق ، فلا انطواء هناك ولا تعقيد ولا تشاؤم ... تجد عنده التفاؤل بالأشياء والطبيعة والناس ، وتجد عنده الأضواء المشرقة لا الظلال القاتمة .

شخصياته واضحة صريحة ، لا تراها ملتوية ولا متحكمة ولا متعنتة .
وهو وصّاف مصور من الدرجة الأولى .

وتبدو حياة « تيمور » هادئة مطردة من وراء أسلوبه وفنه ، وليس بها مغامرات أو فجوات ، ولكنه يبدو خلال ذلك شديد الحيوية ، زاخر المشاعر ، يسكب نفسه على الورق فى روعة وجلال .

وهو بارع فى رسم الأشخاص إلى أبعد حد . يتميز بالهدوء والرفق والأناة والبساطة ، ويتميز كذلك بالطلاقة والرشاقة والابتكار .

وقد وصفه أحد متذوقى فنه بأنه : « يرسم الأشخاص حتى إنك لتحس أنفاسهم وتلمح الحياة فى حركاتهم . »

وهو قدير على الربط بين الشرق والغرب ، والفن والخُلق ، والواقعية والتحليل...

ومع ذلك فقد برع فى الأدب الرمزى والأسطورى ...

فى الكتّاب من لهم صفة الجهامة والضيق والاستعلاء .

ومنهم من لهم صفة النقد المملوء بالسخرية والاستهتار.

ومنهم من تشف آثاره عن الحرمان أو التلهف أو التمرد .

ومنهم من تبدو وراء سطوره معالم التشهير أو التجريح .

ومنهم من تطفو على كلماته سيما المرارة النفسية الخاصة .

ولكن أدب « تيمور » لا تستطيع أن تلمح فيه مغمزا من هذه المغامز .

فتراه سويا ... ينبض بالصفاء والنقاء والتجرد عن الحقد والتشهير والانتقاص . وإذا بك إزاء كاتب قد امتلأت روحه بحب الإنسانية ، وهو يعرض لك صورها فى قدرة الفنان واتزان الاجتماعى . لا كبرياء على المجتمع ، ولا استعلاء على الناس ، وإنما هناك السماحة والتواضع والبساطة ، تستشف منها روحا طاهرا ، وريحا عاطرا ، وعبيرا شذيا .

وأنت حين تقرأ له ، تشعر بأنه يكتب فى أوقات «الصفاء» ... فهو أنيق العبارة ، كما هو أنيق الملبس .

تحس بروح «الصالونات» وتشم عبير الاستقرار والتطامن حين تقرأ له .

وساعات الصفاء المتخيرة تبدو واضحة فى كل آثار الكاتب على العموم ، هـذه الآثار التى تتساوى فى الدرجة من الناحية الفنية ، فلا تلمس فى إنتاج « تيمور » ما يبدو فى إنتاج بعض الكتّاب من ارتفاع وانخفاض .

وهذا يدل على أن « صومعة تيمور » تغلق بابها عليه فى أوقات معلومة ، فلا يجرؤ أحد أن يقتحمها عليه .

ولا يمنع أن تكون هذه الصومعة فى «الزمالك»، ولا يمنع أن تكون أحيانا فى القرية ، أو فى أى مكان آخر يختاره الكاتب ... على شاطىء النيـــل ، أو تحت ضوء القمر ، أو فى زورق حالم ... فى أعماق الليل !

* * *

يصف « فريد أبو حديد »[1] أسلوب « تيمور ، فيقول :

« يمتاز أسلوب الأستاذ « تيمور » بصفة نظن أنها تميزه عن كل أسلوب قصصى آخر .

فالقارىء لا يستطيع أن يميز بين حديثه وقصته ، فهو يرسل قلمه إرسالا بغير تكلف ، ويضفى على قصته من الألوان الطبيعية ما يجعل القارىء فى شك من أمره . أهو يقرأ قصة خيالية ؟ أم يقرأ وصفا لحادثة فعلية وقعت للمؤلف أو حدثت تحت سمعه وبصره ؟ »

ثم يمضى فيقول : « الأستاذ « تيمور » مبدع فى تصويره ، ذلك الإبداع الذى لا يواتى إلا عباقرة أهـل الأدب والفن ، الذين وهبهم الله طريقة الخلق والإنشاء ... «تيمور» كاتب واقعى ، بارع فى تصوير مايقع تحت حسه أو يصل إلى دائرة علمه » .

ثم أخذ يصور رأيه فى «نداء المجهول» ، فقال :

« ولست أستطيع أن أمنع نفسى من أن أظهر عجبى ، أو إن شئت قلت إعجابى، بمقدرة «تيمور» على التصوير. لقد شهدت له بذلك من قبل، ولكنه كان يصور من قبل أشخاص الحياة تصويراً بارعاً ، وهو فى القصة الأخيرة إنما يصور

(١) الثقافة ١٩٣٩ .

حياة خيالية . أليس هذا مستوى كاتب مثل « ريدر هاجرد » أو « كونان دويل» ، أو «ولز» .

أرجو المعذرة إذا قلت إن تصوير القصر المسحور فى القصة لايقل براعةعن تصوير « ريدر هاجرد » فى قصة «كنوز الملك سليمان» أو فى قصة «عائشة» .

لقد مس الأستاذ من النفس أعماقها عندما أعاد « مس إيفانس » إلى القصر المسحور فى ثنايا الجبال الوعرة ، تاركة وراءها العالم الصاخب بما فيه من مغريات ولذائذ ، لكى تنعم بالحياة الحقيقية التى امتلأ قلبها بها .

شُكر العربية للأستاذ «تيمور» على جهاد جديد»

وهكذا الأستاذ «إبراهيم جلال»[1] يتحدث عن «نداء المجهول» فيقول :

« نالت أقاصيص «تيمور بك» التقدير فى دوائر الأدب فى جميع بلدان الغرب ، فترجمت له بعض الأقاصيص إلى أكثر من لغة ... فترجم المستشرق السويسرى الدكتور « ويدمار » بعض أقاصيصه إلى الألمانية ، كما ترجمت له إلى الفرنسية قصة « الأطلال » مع مجموعة قصص أخرى إلى الفرنسية بعنوان « غراميات سامى » ، وترجمت له قصص أخرى إلى بعض اللغات ، كالإيطالية والقوقازية والروسية . إلى غير ذلك[2] .

---

(١) الثقافة ١٩٣٩ .

(٢) ترجم له الأستاذ «جونسون ديفيز» مجموعة قصصية نشرت بالإنجليزية ، وكذلك ترجمت له مجموعة قصصية إلى اللغة الفرنسية بعنوان « عزرائيل القرية » .

و «تيمور بك» له قدرة على التصوير الدقيق ، فهو ينقل براعة الوقائع والمرائى والمشاهد ... أسلوبه رائع لا تكلف فيه ... وهو يترك نفسه على سجيتها ، فتصدر كتاباته فى غير كلفة أو تصنع ... ولهذا كانت كتاباته قريبة من نفوس القراء . ويمتاز أسلوبه بالسلاسة والجزالة » .

وهذا الدكتور « زكى مبارك » ، يقول :

« الدليل على أن «محمود تيمور» رجل داهية هو إقباله على فنه الأدبى بطريقة جدّية من حيث لا يشعر أحد أنه من أصحاب الأهداف ، فمنذ أكثر من عشرين سنة وهو يفكر ويكتب بنظام لا يعرف الملال . وقد يتفق له فى أحيان كثيرة أن يهيم فى شوارع «القاهرة» بلا غرض ظاهر ، فهل يصنع هذا الصنيع إلا ليستوحى «القاهرة» ويتعرف إلى شمائل الناس فى الغدو والرواح ؟

والرأى عندى أن ذلك هو حاله فى جميع ما طوف من البلاد ، فأقاصيصه تشهد بأنه ينقل عن عيان لا عن سماع .

و «محمود تيمور» له غاية فى صحبة من لا يمتون إليه بصلة نفسية أو ذوقية ، وغايته هى دراسة الغرائز والأحاسيس فيمن يلقى من الناس .

« نداء المجهول » رواية لم يكتب مثلها كاتب فى الموضوع الذى صيغت فيه ... »

ويقول الأستاذ صديق شيبوب : « قصص تحمل طابع مؤلفها الفاضل : اتزان فى العرض ، واقتضاب فى الوصف ، وتبسط فى الأسلوب ، وحذق فى بناء الحبكة ... »

وهكذا تتجمع الآراء الصادقة المنصفة كلها حول تقدير « ريشة تيمور » والإشادة بها .

وكل مايمكن أن يقال عنه بعد ذلك ، أنه رجل مثالىّ ، يحمل قلما غاية فى العفاف ، وأنه الرجل الذى برئ قلمه من أن يكون سلعة ... تباع وتشترى .

وفوق ذلك فقد ترفع عن أن يدع أهواء السياسة تتحكم فى قلمه أو أدبه ، فعاش كريما ، وعاش قلمه رفيعاً ...

فى صحبة تيمور

لا أنسى تلك الأمسيات العاطرة الندية حين كنت أجلس إلى « محمـود تيمور» ... والقمر ! فأقرأقصصه، وأمتع نفسى بكل مافيها ... الأسلوب الناعم البليغ ، والحوار الجميل ، واللفتات الرائعة . الأضواء والظلال . الهدف والأثر. الروح السامية المتعالية ، البساطة والتفاؤل والإشراق .

وأناأمزج هذا كله بنظرات شاردة إلى القمر، وهويتألق فى صفحة السماء، فى ليالى الربيع وأماسيه .

صاحبت «تيمور» ، أدب «تيمور» وروحه ، يافعا وشابا ورجلا.

صاحبته عزبا ومتزوجا ، قارئا وكاتبا وناقدا ...

فى الريف ، حيث كنت أستشعر الحرمان ، وفى «القاهرة» حيث أقمتُ آخرا فى الحرية وفى الأصفاد ... فى الصيف والشتاء ، فى النهار والليل... ثم فى «الإسكندرية» و «الأقصر» ... فى« مصر » وفى «الحجاز» ... فما ملنى ولا مللته ، ولا جفانى ولا جفوته .

صحبة استطالت وامتدت على الأيام ، نحو عشرين عاما ، تغير فيها كل شىء ولم تتغير تلك الألفة الحبيبة الممتعة... حتى إننى عندما فكرت فى لقاء «تيمور» ترددت كثيرا ... فقد كنت أشعر بأنه يعيش فى أعماق روحى ، يعيش حياة

(٦)

أزلية أبدية خالدة ، حياة محبين تآلفت روحاها ، والتقتا فى عالم الفكر والفن والجمال .

ترانا فى حاجة إلى اللقاء فى عالم الأشباح ؟!

* * *

عشت مع «تيمور» فى كتبه وصوره ، وما كتب عنه ، طويلا ... أتطلع إلى رسومه وصحائفه ، وأناجيه ، وأقرأ له وأحدثه ... كأنه صديق يسكن معى فى غرفة مكتبى ، حتى امتزجت به امتزاجا روحيا قويا .

وفى نفسى معان تتلاقى ومعالم تتشابك مع روحه الوثاب ... أراه سمحا على طبيعته ، لا يصطنع الابتسام ، ولا يتكلف المجاملة . واضح القسمات ، فى وجهه وأدبه .

هدوء روحه يبدو جليا فى شخصه وفى بيانه .

فى مظهره الطموح والطلاقة والبشاشة ... وهى من شمائل شخصيته ، وملامح أدبه ! .

تغلب روح الواقعية والتحليلية على أدبه ، وبروز الاتجاه الإنسانى على كل آثاره بلا استثناء ...

التأمل ، والاستشفاف ، والاستيحاء الباطنى كما يقولون ، وراء الزهور فى الحديقة ، أو المرابع الخضر فى الريف ، أو السماء الصافية فى «لبنان» ، أو البحر فى «الإسكندرية» ... أو النيل فى «الأقصر» ، أو الجبال الجرداء فى «سويسرا» ...

فى الليل ، فى الصباح الباكر ، فى الأصائل ... كل ذلك أودع لدى الكاتب رصيدا ضخما من الفطرة الصافية التى تبدو واضحة فى كل آثاره .

سريع الخاطر ، لماح البديهة ، قوى الذاكرة ...

وهو بالجملة رجل «صالون» لم يعرف التحزب ولا الخصومة ، ولم تقع بينه وبين أحد مساجلات أو خصومات أو معارك أدبية .

* * *

ولد « تيمور » فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ...

واستشرف مطالع الشباب والنضج فى الوقت الذى وضعت فيـه الحرب الأولى أوزارها ، وتفتحت معالم الروح الشاعرة والحاسة الفنية فى « بؤرة » الثورة المصرية .

وقضى أيام شبابه الأولى بين قصر « درب سعادة » وبين « عين شمس » ونشأ فى بيئة كلها ورق وأدب وصحف وشعر وبحث .

كان يتصدرها والده العظيم «أحمد باشا تيمور» ومن حوله مجموعة ضخمة من مثقفى الجيل وعظماء البلد ، أمثال : « البارودى » و الشيخ « محمد عبده » و « الشنقيطى » و « شاكر » و « الطويل » ، وأعلام من أدباء العروبة والمستشرقين .

وعمته السيدة « عائشة التيمورية » الشاعرة البليغة ، طليعة جيل الثقافة النسوية فى الأدب العربى الحديث .

وشقيقه « محمد تيمور » زعيم مدرسة تمصير الأدب فى مفتتح هذا القرن .

* * *

رفعه إلى مكان الصدارة علمه وفنه ، قبل اسمه ومحتده ...

فهو مؤثل المجد بالنسب العريق ، وبعيـد الأثر فى الأدب بالبيان البليغ ،

وقد كان حَرِيًّا أن يكون من أبرز العظماء وأكبر الوجهاء ، باسمه اللامع ، وما حباه الله به من وفرة فى الرزق ، وبسطة فى العيش ، وسعة فى النعمة .

ولكنه برز ولمع ، وارتفع اسمه ، بشىء آخر ، غير الجاه والمال ، وغير ما عرف الناس من مقاييس .

بلغ المجد بيده ، واقتعد مكانه بحدّ قلمه ، وعرف له خطره بآثاره ... وأوتى أرفع مناصب العلم والفضل بعضوية المجمع اللغوى بذلك الجهد الذى أنفقه فى خدمة الأدب والفن ... وبذلك الفيض من الآثار الأدبية والقصصية الرائعة فى مدى ربع قرن كامل ، تلك الآثار التى يؤرّخ بها لذلك الفن الجميل . على أن « محمود تيمور » هو الرائد الأول ، وصاحب أحجار الأساس فى بناء القصة فى الأدب العربى الحديث ... بله الأدب العربىّ عامة .

* * *

شهد كاتبنا التاريخ الوطنى المصرى الحديث منذ فجره ، وعاشره وعاش فيه منذ بدئه ... فقد كان « تيمور » فى شبابه ، يوم أن أعلنت الثورة ، ومضى يرقب الأحداث من مكمنه ، والتطورات والتغييرات ، اجتماعية وسياسية وأدبية وفنية ، فكان له فيها أثر بارز . فلا يستطيع متحدث ما أن يتكلم عن القصة فى تاريخها المصرى والعربى الحديث منذ فجر النهضة الأدبية إلا ويذكر « محمود تيمور » بأوفى نصيب من التقدير ، ويسجل له القسط الأكبر والقِدْح المعلى فى الإنتاج والأثر والتوجيه .

« محمود تيمور » ، هو الذى رسم للقصة المصرية الحديثة معالمها وأصولها ، وأرسى قواعدها .

وهو الذى مزج الصياغة الغربية ، والفن العربى ، والجو الشرقى ، والروح المصرى . مزج كل هـذه الألوان بعضها ببعض ، فى خلال ربع قرن ، حتى غدت القصة خَلقا سويا ، قد استقام على قدميه ، وشب عن الطوق ، وركز أعمدته فى تاريخ الأدب !

يقول « تيمور بك » : « وكانت الحرب قد انتهت ، وبانتهائها ثارت فينا نزعة القومية ، وأدركنا صلاح المبادئ التى نادى بها « سعد زغلول » وصحابته ، واتسع نطاق «المصرية» فطغى على كل شىء فى حياتنا ، سواء أكان فى السياسة والاقتصاد أم فى الأدب والاجتماع .

أما من الناحية السياسية فقد أدركنا كيف أن الدولة العثمانية التى كنا ننظر إليها زعيمة ومنقذة ، قد جعلت تنهار ، وينكشف لنا ضعفها ، فعادت إلينا الثقة بنفوسنا ، ورأينا من مبادئ « ولسون » الأربعة عشر ما يحقق لنا حياة مستقلة سعيدة لا تبعية فيها ولا خضوع ، فاعتزمنا أن نعمل لهذا الاستقلال معتمدين فى ذلك على أنفسنا وحدها .

وأما من ناحية الاقتصاد فقـد دفعتنا الحاجة إلى سد الثغرة التى أوسعتها الحرب فى وارداتنا الأجنبية ، فنشطت بعض الصناعات الوطنية وازدهرت ، وبدأنا نحس لذة الفوز فى ذلك المضمار ، فطالبنا بالمزيد ، وقد تأكد لنا أن فى مقدورنا السيطرة على صناعتنا ...

وأما من الناحية الاجتماعية فقد شاهدنا كيف أن الحرب فى «أوربة» قد قلبت الأوضاع ، فأنشأت نظما وأوضاعا فرضتها فرض المتحكم الغلاب ، فلحقنا منها الشىء الكثير .

ورأينا أن الانقلاب الذى كان يقدر له « قاسم أمين » عشرات السنين يتم فى أعوام لا تتجاوز عد أصابع اليد .

أما الأدب فقد اصطبغ باللون المحلى الصارخ ، حتى أغانينا الشعبية غلبت عليهاهذهالصبغة، ورأينا أنفسنا نتجه نحو الواقع ، فأصبحنا عمليين بعد أن كنا شعراء خياليين . وشاع المسرح المحلى ، وبخاصة الهزلى منه ، وانتشر الاقتباس وبدأ الابتكار ، على حين تضاءلت الترجمة .. فى هذا الجو كتب « محمد تيمور » أقاصيصه « ما تراه العيون » وقد نحا فيها نحو المذهب الواقعى .

فأعجبت بها إعجابا دعانى إلى أن أؤلف على غرارها ، فكتبت باكورتى فى القصة: « الشيخ جمعة » .. الخ »

قرأتُ « تيمور » مبكرا ... وتأثرت به كثيراً ، وأحببته ... وكان ذلك حوالى سنة ١٩٣٠ وظللت إلى سنة ١٩٥٠ لم أتصل به ، حتى لقيته فى صبيحة يوم من أكتوبر سنة ١٩٥٠ ، وكنت أحمل له فى نفسى صورة مليئة بالدعة والوقار ، وحسنالسمت والحياء . وكنت أراه من بينالسطور ، الرجل الهادئ المعتكف فى صومعته الأنيقة ، الحافلة بالكتب والصور وأدوات الفن . وهو يتطلع من وراء النافذة الزجاجية المصقولة إلى الناس السائرين فى الطريق .

وكنت أدهش كيف قدر لرجل مثل « تيمور بك » أن يصل إلى أعماق الحياة ، وأن يتعمق فى فهم دقائق الطبائع النفسية للناس ، وأن يصور هذه المعالم من الحب والألم والشوق والحرمان ، التى لا يعرفها إلا من يبلوها ممن يعيشون فى قلب القرية وبين الكوخ والحقل .

ولكنى حين قابلت «تيمور بك» تبينت أن فراستى فيه صادقة ، ولكنى

علمت ما بدد ظنونى، فقد رأيت الرجل وقد أحاط بدقائق أمور القرى والأكواخ والريف كأى فلاح قديم . وعرفت أنه اتصل بالقرية من مفتتح شبابه وإلى الآن اتصالا مباشرا . وأن هذا الاتصال قد أكسبه تلك القدرة على فهم تلك الحياة . وقد أكسبته جولاته الدائمة فى القرية وبين الفلاحين ، واستماعه لآلام القرويين، وحدبه على عماله ، وتأثره بمآسيهم ومشاكلهم ، أكسبه كل ذلك فهما وفنا ، وأعد له ذلك المحصول الضخم من دقائق الحيـاة الاجتماعية الواقعية التى كان يأسوها بالعطاء والعطف ، ويسجلها بالبيان والقلم .

وعرفت أن « تيمور بك » يحمل معه أدواته وأقلامه أينما ذهب .. سواء إلى القرية ، أم إلى «أوربا» ، أم إلى الثغر .

* * *

و « محمود تيمور » يعدّ من الجيل الوسط بين شيوخ الأدباء وشبابهم فقد بدأ حياته الأدبية متأخراً عن « طه حسين » و « هيكل » و « المازنى » و « الرافعى » بنحو عشر سنين ، إذ أصدر مؤلفه الأول سنة ١٩٢٥ .

ولم يُسبق « تيمور بك » فى القصة إلا بقصة « زينب » لهيكل ، وقصص « ما تراه العيون » لمحمد تيمور .

وبالرغم من أنه بدأ اتجاهه مستهدفا الأدب المصرى القومى ، على النحو الذى كانت تتجه إليه النزعات الأدبية والفنية بعد الحرب الأولى ، فإن « محمود تيمور » سرعان ما اتصل بالأدب العالمى ؛ ومن ثم أخذ يتجه نحو الأدب الإنسانى الـكبير .

* * *

وتبدولك فى وضوح ـ وأنت تدرس شخصية « محمود تيمور » ـ الشخصية الكاملة التى انجلت عنها المركبات السيكولوجية التى تملأ « آثار » الكتاب بالعوارض المتضاربة الحادة . فهو رجل ميسور أوتى بسطة من العيش والرزق، متزوج وله ذرية ، وفى مظهره وجاهة وإشراق وجمال . قوام ليس بالقصير ولا بالطويل، لا تقتحم العين فيه نقصا . فى طبيعته سماحة وسمو ، وتواضع ورقة. مثل هـذا الشخص ، فى ميزان التحليل النفسى ، يمثل الشخصية الكاملة ، التى تنتفى عنها عوارض المركبات المنوعة ، ويطمئن معها المؤرخ والباحث الذى يكتب الترجمة ، إلى أنه بعيـد عن نزوات الكاتب المحروم أو المضطهد ، هذه البدوات المأمونة الظهور فى آثار هذا الكاتب الأصيل .

ولا عبرة فى هذا بما يقوله « تيمور بك » عن نفسه من أن المرض قد حجزه عن الاستمتاع بما ينعم به غيره ، وقد دفعه هذا النقص إلى الاستكمال بالخيال .

يقول « تيمور بك » ، فى الفصل الذى عقده عن « المصادر التى ألهمته الكتابة » :

« ولا أستطيع أن أختم هذه العجالة قبل أن أتحدث عن أمر أضعه فى مقدمة الأمور التى أثرت وما زالت تؤثر فى مجرى حياتى ، أعنى به صحتى ... فقد تألبت علىّ الأمراض منذ الطفولة...منذ الصغر والعلل تتردد علىّ حتى ألفتها الآن ، وأصبحت غير غريبة عنى !.. منذ سنين طويلة وأنا فى رقابة الطب فى مأكلى ومشربى ، وفى نومى ويقظتى . سَنّ لى هذا الجبار قوانين لا أستطيع الخروج عنها ، فأنا أعيش من مرضى فى قفص ، أنظر إلى الأصحاء من الناس

يستمتعون بكامل حريتهم، فأغبطهم وتنالنى حسرة أليمة .

وهكذا كنت أحس فى أعماق نفسى بنقص يحجزنى عن الاستمتاع بما ينعم به غيرى . هـذا النقص دفعنى يوما وما زال يدفعنى إلى أن أستكمل فى الخيال ما عجزت عن إتيانه فى الواقع . ومع ضعف صحتى وما نالنى من مرض، أجد نفسى قد تخطيت الأربعين وما زلت حيا أرزق ، فأعجب لذلك وأقول : لسَّهْ لك عمر ! »

* * *

بقى أن نتحدث عن طابع الاتجاه الأدبى والثقافى ، وهو طابع وراثى تقليدى بالنسبة لكاتبنا الكبير . وإذا نظرت نظرة أوسع ، اعتقدت أنه يكاد يكون أمراً مكرراً فى تاريخ جده «إسماعيل تيمور باشا» ووالده «أحمد تيمور باشا».

يقول « أحمد باشا » فى ترجمته لوالده « إسماعيل باشا » :

« حُببت إليه العزلة والبعد عن الناس ، ولم يكن يبهره بهرج المناصب والرتب . وكان مشغوفاً بالعلم والعلماء ، لا يخلو مجلس منهم ، مولعاً بالمطالعة ، يرى أسعد أوقاته الساعة التى يقضيها فى قراءة كتاب أو تحقيق مسألة ، مع المغالاة فى اقتناء الكتب النفيسة شراء واستنساخا ، والإقبال عليها بالمطالعة. حتى رُوى عنه أنه كان يقول : إنى لأستحى أن يقع فى يدى كتاب لا أطالعه».

وأنت لو قلت هذا الكلام عن « أحمد تيمور باشا » نفسه ، لكان حقا . ولو قلته عن « محمود تيمور بك » ، لكان حقا . ذرية بعضها من بعض ، جردها الله للعلم ، وحباها من سعة الأفق ، وكمال الخلق ، وزكانة العقل والقلب... فانصرفت إلى العلم والأدب ، ووضعت اللبنة إثر اللبنة فى هذا الحائط الضخم.

وتعجب كيف أن هؤلاء، وقد آتاهم الله السعة والمال ، يحنون رؤوسهم على المكاتب، ويقذون عيونهم تحت أضواء المصابيح .

يقول بعض الناس : إن طابع « تيمور » فى قصصه هو الهدوء . وهـذا حق ، «فتيمور» لا يثور ، وقد استطاع بهدوئه وصبره وأناته واتئاده ، أن يبنى وأن ينشىء، وأن يضع اللبنة بجوار اللبنة ، حتى أقام هذا البناء الضخم فى أقل من ربع قرن .

ولو كان « محمود بك » ثائرا لما أنشأ ، ولما نجح .

ومتى كان الثوّار ينجحون فى البناء والإنشاء ؟ إن طبيعة الثوار هى الهدم والنقض والتحطيم ... وذلك ما تركه « محمود بك » لغيره .

واكتفى هو بأن يكون بناء « لجوهر » القصة وكيانها فى الأدب العربى غير منازع ، ولن يستطيع مؤرخ منصف أن يزعم بأن « تيمور » غير سابق . ولا غرو فإن أغلب كتاب القصة المحدثين ، فى أدبهم لمحات من «تيمور» .

ويكفى «محمود تيمور» أن يسجل له التاريخ الأدبى لهذه الفترة ، أنه كان الرائد الأول للقصة المصرية ، وكان القصصى الأول الذى أنشأ فناً كاملا .

صابرَ «تيمور» وقدهيأته الطبيعة وأعده الفن، ليكون رجل القصة الأول. بل أميرها . شمر وتحفز ، وأعد أدواته ، وعاونه الفراغ والسعة واليسار على أن يتحرر من قيود السياسة والوظيفة والعمل والصحافة جميعا ، وأن يقف نفسه على الميدان ... فإذا به بعد قليل من الزمن ينبغ فيه ويأتى بأطيب الثمرات . وإذا به يملأ الصحف والمجلات وكلها طامعة فى أن تحلى جيدها بدرة من درره.

ومضى الرجل ينشىء ، حتى أربى ما أنتجه على أربعمائة قصة ، من أجود روائع الفن القصصى المصرى .

وجاء كتّاب القصة ، من بعد « تيمور » ، فضربوا فى مختلف الآفاق يمينا وشمالا . ولـكنهم قطعوا بأنه رائدهم الأول .

* * *

وقد يضيق « تيمور بك » بهذا . ولـكننى أستطيع أن أضع تحت نظره كلمةمعالى الدكتور «طه حسين باشا» التى ألقاها فى حفل استقباله بالمجمع اللغوى . قال :

« وسَبقت أنت إلى شىء لاأعرف أن أحداً شاركك فيه فى الشرق العربى كله إلى الآن . وإذا ذهب أحد مذهبك أو جاء أحد فيما بعد بخيرمما جئت به ، فلن يستطيع أن يتفوق عليك ، لأنك فتحت له الباب ، ومهدت له الطريق ، ويسرت له السعى ، وأتحت له أن ينتج وأن يمتاز وأن يتفوق . هـذا الذى تفوقت فيه وامتزت ، وسجلت به لنفسك خلودا فى تاريخ الأدب العربى لاسبيل إلى أن يمحى ، هو القصص على مذهبه الحديث فى العالم الغربى » .

ثم يمضى «طه حسين باشا» فيقول : «كنت تـكتب العامية فـكانت تأتى كأنما يتفجر بها ينبوع ، ثم أخذت تـكتب العربية الفصحى فـكانت تأتى كأنما يتدفق بها نهر ضخم. فأنت رائع حين تـكتب فى العامية، وأنت رائع حين تـكتب فى اللغة العربية » .

... ومضى يقول : « وفيك بعـد هذا كله دعابة حلوة ، لا يكاد الإنسان يبلغها حتى يقف عندها ثم يمضى فى قراءتها ، ولـكنه لاينسى هـذه الدعابة :

دعابة فى اللفظ ، ودعابة فى التصوير ، ودعابة فى التفكير أيضا » .

ويقول « فريد أبو حديد بك » فى الاحتفال بتتويج إنتاج « تيمور بك »:

« إن فنه يمتاز بثلاث :

أنه يرسم الأشخاص ، حتى إنك لتحس أنفاسهم ، وتلمح الحياة فى سهولة حركاتهم .

أنه يكتب فى لغة سلسلة لا تحجب شيئاً من معانيه .

أن فنه يشيع منه روح وديع من الإنسانية لا تحس معه حرارة فى وصف حتى ليكاد يحبب إليك الضعف الإنسانى» .

ويقول الأستاذ « محمد عبد الغنى حسن » :

« إن مسرحيات «تيمور» مثل شخصه ، لا تجد فيها تعقيداً فى الأشخاص، ولا غموضا فى الأفكار ، ولا اشتباكا فى سرد الحوادث، كما هو الشأن عند بعض القصاص ، ولكنها بسيطة إلى أقصى حدود البساطة .

وكثيراً ما تذكرنى وأنا أقرؤها «بمحمود تيمور» نفسه محدثا حلو الحديث شائق العرض ، هادئ الطبع ، فى سماحة ورجاحة واعتدال ...

أسلوب «تيمور» مشرق السمات ، لا تجد منه أثراً لهجنة أولوثة من عجمة.

أغرم بالكتابة بالعامية لرأى ارتآه ، وليس لأن الفصحى لم تطاوعه...

براعة السرد ، لطف القص ، حسن العرض ، جمال الحوار ، اللفظ النقى الجيد»

— ٧ —

منـــازل الوحى

لكل كاتب منازل وحيه، التى تكون ــ عادة ــ موطن أفكاره وخواطره، والتى حينما يأتيها تشحذ همته وقريحته للكتابة والإنتاج .

والكتاب والفنانون يختلفون فى أمر هذه المنازل اختلافا مبينا. فحين يراها بعضهم فى القرية ، يراها الآخرون فى المدينة . وبينا يرها أحدهم فى الهدوء والسكون، يراها الآخر فى الضجيج والضوضاء .

و«تيمور بك» رجل قدصَحِبْته بالروح طوال السنين ، فوجدته من خلال سطوره هادئا ، متئدا ، طلقا ، شاعرا ، محبا للجمال والسكون . وسمعت عنه ، فرأيت الناس تتحدث عن رجل من أصحاب الأبراج العاجية الذين قلما يختلطون بالناس ، أو يمشون فى الأسواق .

ثم رأيته أخيرا ، فصدق حدسى فيما تخيلته عنه من اتئاد واعتدال وهدوء وطبيعة وقور ، لا تميل إلى الصخب ، ولا تحب الضجيج ، ولا تجنح أبدا إلى الخصومة أو الصيال ، أو النزول إلى حلبة الصراع .

تلك الطبيعة هى التى أكسبت القصة العربية الحديثة هذا الرجل .

فلو قد نزل «تيمور» إلى ميدان السياسة مثلا ، ولو كانت له طبيعة مطواعة للصراع والمناورة والاقتحام، لكان مكانه اليوم فى دنيا الزعماء ورجال الأحزاب

ولكن ليس معنى هذا أن «تيمور» حقا من المتصمين بالأبراج العاجية، أومن المنحرفين عن الطبيعة الإنسانية، أومن الذاهبين مذهب بعض الخياليين، أو الأرستقراطيين .

بل إنه، وهو يحمل تلك النفس الكبيرة، وذلك الرصيد المذخور من الشعور والفكر والإيمان والحب والفن ... إنما يهوى أن يخرج للناس هذه المعالم آثارا حية خالدة . فقد كان خليقا بأن يجنح إلى برجه بين آن وآن ، وكان خليقا أن يعزف عن الناس ليكتب عن الناس .

ولكن « تيمور » ـ وهو السوى الخلق والطبيعة النفسية ـ مشغوف بالاختلاط بالناس . ولطالما رُئى وهو يمشى فى الشوارع وينتقل بين مكان وآخر فى قلب «القاهرة» ، ليستمع إلى الناس ، وليرى كيف يصطرعون ويضطربون ، لينقل صورة حية عن المجتمع حين يكتب .

وهو كذلك فى القرية ، قضى فيها سنوات من مفتتح شبابه ، وعاودها آنا بعد آن بالزيارة، فألف الفلاح، والكوخ، وعرف عادات الناس وأخلاقهم ومطامحهم وأوهامهم. وقد أمكنه ذلك من أن يكون الرائد الأول للقصة القروية! إن جاز إطلاق هذا التعبير .

* * *

ومنازل الوحى عند « تيمور » متعددة منوعة ، قلّ أن يتشابه معه فيها كاتب آخر . بين قصره فى «الزمالك»، وقصره فى «الرمل» ، وضيعته فى الريف ، وبين رحلاته إلى «لبنان» و «سويسرا» ... تجد هذه المنازل الموحية .

وأنت حين تزور قصره فى « الزمالك » وتسير فى شارع «الأمير حسين»

ذلك الشارع الضيق ، وترى كيف تتشابك الأشجار العالية الباسقة وتلتقى من الجانبين ، فتصنع تلك الظلال الساحرة الرائعة فى أيام الصيف وأيام الشتاء على السواء .

وأنت حين تمضى فى ذلك الطريق وتمد بصرك إلى الأمام ترى منظر خميلة من الخمائل الفاتنة ، فلا تلبث أن تذكر كيف أن هـذا المنزل جدير بأن يوحى إلى « تيمور » ألوانا من الفن ...

وفى «فويسنا» ترى القصر الكبير رابضا فى صدر الضيعة ومن حوله المروج الخضراء وعرائش العنب وأشجار الأزاهير الحمراء والصفراء الرائعة .

وفى « الإسكندرية » ، حيث البحر والجو والجمال ، يجد الفنان خير مجال يهيئ للقريحة فترات التلقى والكتابة والإنشاء .

أما فى «لبنان» ، فقد رأيتَ قصة «نداء المجهول» ورأيتَ كيف جعل «تيمور» الطبيعة شخصا ماثلا متحركا فى طوايا القصة كأنما يحس ويتكلم .

أما فى «سويسرا» ، فقد نقلتُ لك صورة مصغرة لمجلس « تيمور » عند بحيرة « ليمان » .

وأنت تستطيع أن تتحدث عن منازل الوحى ، فى كل مكان ذهب إليه « تيمور » ، هذا الرحالة المنقطع النظير الذى طوّف « بأوربا » و «أمريكا» ، وذهب إلى الشرق والغرب منذ الشباب الباكر النضير . أعانه على ذلك جسم ضامر التركيب ، قليل الشحم ، هو أداة الرحلة والسفر ، والمعين على التنقل بين مختلف الأقطار .

تعددت منازل وحى الفنان وتنوعت ، وأعطت الطبيعة للرجل كل شىء ،

ومكنته من ناصية الفن بكل أدواته وأسبابه : النفس الشاعرة ، والقلم الطيّع ، والفؤاد الحى ، والمال الميسور .

فذهب من القرية إلى المدينة، إلى الثغر ، إلى « أوربا » ، إلى « أمريكا » . وشاهد هنا وهناك مئات الصور واللوحات الفنية ، وطالع خلال ذلك آيات الفن التى كتبها أدباء القصة وأقطابها ، فى الشرق والغرب ، وشاهد مئات المسرحيات والأفلام السينمائية فى شتى دور السينما المتعددة . كل هذه ذخيرة الفنان ، وتلك مواطن وحيه .

ففى أى مكان ، مادام الورق معك والقلم ، فأنت مستطيع أن تسجل اللمحة المارّة ، والفكرة الطائرة ... ثم تجمع هذا وهذا إلى إضماماتك ، التى تكون من بعد مصدر العمل الفنى الكامل .

* * *

و« تيمور » يهوى المسارح ودور «السينما» ، وهى تكاد تكون هوايته الوحيدة بجوار القراءة ، وهى لاشك هواية فى صميم العمل الذى جرد نفسه له.

وهكذا يقضى «تيمور» أوقاته بين كتابة القصة أو قراءة القصة أو مشاهدة القصة ...اليد واللسان والعين والأذن كلها خدم لفنه !

* * *

ولد « تيمور » ونشأ فى « درب سعادة » ، فى قلب « القاهرة » .

وسافر إلى القرية ، فقضى فيها طرفا من أيامه ، ثم ذهب إلى « باريس » واستشفى فى « سويسرا » .

وكان « سرير المرض » فى أول حياته : منزل وحيه ومصدر إلهامه .

وكما يقول هو ، اتخذ من حرمانه من كثير من الأشياء وسيلة إلى تصوير هذه الأشياء بالخيال .

وليس شك أن « تيمور » سام سرح اللهو فى شبابه ... ولكنه كان كما عُرف عن طبعه معتدلا ، فهو لم يسرف ولم ينزلق .

قد يكون عرف الحب ، ولكنه لم يندمج فى قصة غرامية من النوع الحاد الذى ينتهى بالمأساة ، فقد احتفظ لنفسه بالصفاء والأناة .

وهو رجل سوىّ الخلق ، إذ أنه لم يعتزل الحياة الزوجية ، ولم يقنع بالعزوبة ، ولم يسرف فى التجنى على الحياة الاجتماعية ، بل تزوج وأنجب ، وعاش تلك الحياة المنظمة الهادئة !

كل ذلك أمدّ « تيمور » بالفن الهادئ ، الذى لا ترى فيه أثراً للتشويش أو الاضطراب أو التمرد أو الحرمان !

وهو ليس من أصحاب الأبراج العاجية إلا بقدر ، وفى حد محدود . فهو قد اختلط بالطوائف المختلفة والطبقات المنوّعة وسمع عنها ومنها ، وعرف آلامها وآمالها ، وصوّر ذلك كله فى وضوح وقوة .

* * *

إن بعض النقاد يرى أن أولئك الذين نشأوا فى الوسط الأعلى وفى الطبقات المرتفعة ، قد لا تكون لهم تجارب الحياة التى تيسّر لمن نشأ فى الطبقة الفقيرة ، ومن اصطدم خلال أيام الحياة بالكثير من العقبات ، فى سبيل البحث عن الرزق والقوت .

ولكن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه ، وقد يصح أن يكون جائزا على وجه من وجوهه ، ولعل المقارنة تعطى صورة عكسية تماما ، فأنت حين تتصور الكاتب العادى وقد جنح إلى الرفعة ، وآثر البُرْجِيَّة ، ووقف نفسه فى حدود الحياة الجديدة التى أتاحها له ذيوع أدبه ، تراه وقد اعتكف عن دنيا الناس ، وقد كان لها كارها ، وبها ضائقا .

أما الذى نشأ فى الوسط الأعلى ، فهو حريص على أن يرى هذه الطبقة وأن يفهمها ، وأن يوغل فى الفهم والمعرفة ، وخاصة إذا ربطته بها أواصر كبرى كالزراعة مثلا .

والقرية وما وراءها من مصالح المستأجرين والعمال ، وشئون الحقول والحبوب والقطن وغيرها ، وما يجرى فى الضياع من أحداث وسرقات وقتل وجرائم ووقائع فى محيط القرية والوسط الريفى ؛ كل هـــذه يراها صاحبنا « تيمور » ويعيش فيها ، ولا يراها غيره من الذين نشأوا فى وسط الشعب .

ولعل هذه الملابسات قدرفعت قلمه عن أن يجنح، ويده عن أن تمتد ، ولطالما عق الأدباء الشعبيون فطرتهم أمام النضار والمال .

وأنت تستطيع أن تقارن « تيمور » ، وهو من هو فى قدره الذى يوصف بالارتفاع عن الوسط الشعبى، وغيرهم ممن يدّعون الشعبية ، فتجده أكثر أدبا وتواضعا وحسن حديث ، وبعداً عن الغرور والنزق والكبرياء . ولطالما كان أمثال « تيمور » أكبر إيمانا بأوطانهم وحق الأدب والفن عليهم من رجال غيرهم قالوا إنهم من طبقات الشعب ...

* * *

وأنت لا تستطيع وأنت تقرأ « لمحمود تيمور » أن تشعر بأى مظهر من مظاهر التعالى أو الأرستقراطية ، فهو غاية فى الاعتدال والسماحة والبساطة .

وهو شرقى عربى مصرى ، فى أدبه وفنه .

أجواؤه وروحه تتسم بذلك الروح الشرقى المخلص المؤمن .

وهو حين يرسم صورة الرجل المصرى والمرأة المصرية والبيت المصرى تراه صادقا ، يسمو بالصورة إلى المعنى الإنسانى العالى .

ويطبع الأحاسيس والميول والأذواق بذلك اللون الطبيعى الواقعى . فلن تجده منحرفا ، ولن تجده مغرقا ، ولن تجده ذاهبا مع الرمزية أو الخيال . وقد كسب الفن من منازل الوحى ومن رحلات « تيمور » : التحليل والواقعية ، والشخصيات المنوعة التى تتميز بالهدوء والبساطة والنفسيات الخيِّرة ، والولع بالعمل فى كل ميادين القصة ، ومزاولة التجارب المختلفة فى الصياغة والتعبير .

وأنت ترى منازل الوحى واضحة جلية فى تضاعيف قصصه وآثاره الأدبية ، حتى لتحس بأن كل شىء كان مصدر وحى له : فى القرية ، وعلى « البلاج » ، وبين نعيق صفارات الإنذار ، وأزيز الطائرات أثناء الحرب ، وفى ظل ناطحات السحاب الأمريكية ، وبجوار شلالات « نياجارا » ، وفى كل مكان يحل به ، أو مشهد تقع عليه عينه ، أو تحت تأثير فكرة تعرض له ، أو يستمليها من حياته الثقافية والاجتماعية ، على اختلاف ألوانها ومناحيها .

وأنت حين تستعرض أبطاله تجد هذا التنوع الشامل الواعى ، تنوع الرجل الذى يعيش مفتّح العينين والأذنين ليرى ويسمع ، والذى تستحثه كل نأمة وكل حركة وكل كلمة لينتج فنا جديدا مشرقا .

وفى أدب « تيمور » تلمح الحياة المصرية والمجتمع المصرى الحديث فى اضطرابه، وقوته ، وضعفه ، وصعوده ، وهبوطه ـ قد سجلت فى صورة صادقة واضحة ، واقعية ، ستكون أهدى دليل ، وأعظم وثيقة، فى يد المؤرخ المنصف بعد مرور السنين والقرون !

صورة لا افتيات فيها ولا مبالغة ، ولا ظلم منها ولا تهاون ، ولا جرأة فيها على الحق ، ولا اندفاع نحو هوى النفس ، كتبها رجل خلصت أهدافه لفنه ووطنه ، فهو يحبهما ويكلف بهما ويعيش لهما ...

من القصة إلى المسرحية

اتجه « تيمور » أولا نحو المدرسة الواقعية ، ولا أقول « الفرنسية » ، فإن مثل « تيمور » قرأ كثيرا ، ويبدو أنه أعجب « بموباسان » و « زولا » وهو إلى هذا قريب الخيال من « تشيكوف » و « كوبرين » . ثم اتجه أخيرا إلى التحليـل ، واتجه إلى وضع المسرحية بالإضافة إلى القصة ، وله نحو عشر مسرحيات .

قرأ « تيمور » « لزولا » و« موباسان » و« تشيخوف » و« تورجنيف » فى أول تحوله من الواقعية . وأعجب كثيراً « بتشيخوف » و « تورجنيف » لعوامل متعددة ، لعل أوثقها صلة بنفسه هى الحديث عن الريف والفلاح .

فـ « تيمور » كلف بالقرية والفلاح ، ولذلك فقـد ابتدر إعجابه بهذين الـكاتبين، مدفوعا بذلك الاتجاه العميق الأثر فى نفسه.

وقد أوغل « تيمور » فى الثقافتين العربيـة والأوربية ، وأعانه وقته على القراءة المنوعة الواسعة فى فنون الأدب ، فقرأ الإلياذة ، والأوديسة،والشاهنامة الفارسية ، وكوميدية دانتى ، والأنياد ، وأغانى رولان ، ودون كيشوت . وقرأ من القصص العربية: «عنترة» و « الأميرة ذات الهمة » و «مجنون ليلى» و « كليلة ودمنة » و « ألف ليـلة » وغيرها . وقرأ أدب المهجر ، وأعجب

بـ«جبران خليل جبران» أيما إعجاب. وقرأ شعرا منوعا لأساطين الشعر العربىّ والفرنسى ...

وكان اتجاهه « رومانسيًا » ... يقوم على الشاعرية والعاطفة . ثم توسع هذا الاتجاه فى القراءة ، كما تعددت الألوان الفنية فى صوره وقصصه ولوحاته .

ولم يقف عندالألوان الواقعة ، بل مضى يطرق كل أبواب الفن من أسطورية ورمزية و« رومانسية » وغيرها .

ويتجلى أدب الأسطورة فى قصة «فى خميلة الحب» التى كتبها فى«سويسرا» والتى هى أقرب إلى الشعر المنثور ، وفى « نداء المجهول » بتصوير ذلك الاتجاه الغامض ، وبتمثيل النفور من المجتمعات والإعجاب بالصخور والجبال ، والبحث عن الكنوز والآثار والمخلفات . وقصة « بنت الشيطان » أسطورة يظهر فيها ذلك اللون الذى تفيضه على النفس قصص « ألف ليلة » . ومسرحية « فداء » تنطوى على صورة تلك الأسطورة الفرعونية القديمة ... وكل هذه تدل على مدى اتساع آفاق « تيمور » فى الخيال .

وأنت حين تقرأ قصة « كيلوباترة فى خان الخليلى » تعجب لتلك القدرة الفنية الخالقة حين تجمع المتناقضات من الشخصيات : « كيلوباترة » و « تيمورلنك » و « أنطونيو » ، وترى جولاتهم فى الأهرام وعند أبى الهول وفى متحف الشمع !

وهناك قصص « تيمور » الفرعونية التى تمتاز بالخيال المستفيض والحيوية الدافقة .

وكما يسجل « تيمور » اللون الفرعونى لا ينسى أن يسجل اللون العربى ، وهذا يبدو جليا فى كثير من مسرحياته .

ثم يمضى «تيمور» فيصور الريف ، فيخرج تلك القصص الممتازة الخصبة العامرة بالصور والأحاسيس واللوحات والمشاعر .

ولاشك أن « تيمور » قد نجح فى قصصه الريفية نجاحا لم يصل إليه الكثيرون ممن أغرموا بهذا اللون ، وقد طالما نعى النقاد على « تيمور » أن يكتب عن الريف، وهو ليس بالفلاح ولا المولود فى الريف . وفى كلام «تيمور» الذى نورده فيما بعد خير رد على هذا الادعاء :

« إن فى صميم الميدان الأدبى أمثلة تثبت عكس ما يراه النقاد من أن ابن البيئة أولى من يجيد تصويرها ، فقد يكون الفنان نزاعا إلى نوع من الحياة غير الذى يحياه ، طلاعا إلى جديد من العيش وإن كان أدنى من عيشه وأحفل بالمشقة والكد ، فيبعثه الحرمان والنزوع إلى تمثل تلك الحياة المنشودة ، والاستمتاع بها فى عالم الخيال ، ومن ثم يستبين تعبيره قويا حيا يصور بيئة غير بيئته، وطبقة غير طبقته، وحياة غير حياته. »

مضى « تيمور » إلى تصوير الطبقة الشعبية ، فأجاد وأبدع . صور الأفراد العاديين ، ورسم لوحات لتلك الحياة التى يحياها الملايين، وتجاوب مع إحساساتهم وأوهامهم وآمالهم فى الحياة . صور « الفُتُوَّات » وأحلاس القهوات والأحياء البلدية والمرأة الفلاحة والحب غير المدمر . صورها جميعها فى قوة ووضوح على طريقته المعروفة ، البعيدة عن التكلف والمغالاة ، فكان موفقا . بل إنى أعتقد

أن « تيمور » لو نشأ فى محيط الشعب لما استطاع أن يكتب هذه الروائع على هذا الوجه ، وأن حياته بعيدا عن هذا المحيط هى أول أسباب تمكّنه وقوته ، وهى العامل الأوفى الذى أتاح له التعمق فى تحليل طبائع الطبقات الشعبية وأهل الريف .

* * *

و « تيمور » حريص فى أدبه على أن ينحو النحو الإنسانى ، فهو لا يقنع بالواقعية وحدها ، ولا يرضى بالرومانسية كاتجاه محدّد .

ويرى فى المزاوجة بين الذاتية والموضوعية سبيله الأوفى ، وهو يرى أن الكاتب حين تفوته المزاوجة يصبح أحد شيئين : إما خيالى مغرق فى الخيال ، أو واقعى سطحى لا يزيد عن النقل المحض . وطغيان الذاتية أو الموضوعية مروق بالقصة عن نطاق الإنسانية ، فالخيال الغالى يلبس الشخصيات أثوابا غير أثوابها، والواقعية الجافة تجعل هذه الشخصيات سطحية تافهة محجوبا مايعتلج وراءها من منازع .

* * *

وعمل « تيمور » فى كلا الميدانين : ميدان العامية وميدان العربية ، وبرع فيهما جميعا ، وهو يرى: «أن اللغة الصالحة للمسرح هى اللغة العامية . ذلك لأن المسرحية ــ وهى عرض لحادثة مستخلصة من لب الحياة ــ لايستطيع أن يصل فيها الكاتب إلى الإقناع والتأثير ، إلا بأن ينطق الأشخاص بلغتهم التى تمثل ما لهم من سمات وخصائص. فهو جدير بأن يجعل الصدارة للمعنى ، حتى يصل توًّا إلى

الأفهام ، فعليه أن يعبر عنه من أقرب الطرق وأضمنها ، أى اللغة التى تكون أكثر سداداً فى بلوغ الهدف المقصود . »

وفى بسط هذه القضية الأدبية يقول « تيمور » :

« ومهما يكن الأمر فإن فرض اتجاه لغوى على الكاتب المسرحى ضرب من التعسف والعنت ، وفيه مع ذلك حدّ من حريته فى اختيار أبين الوسائل للترجمة عما يريد الترجمة عنه فى الأغراض ، وفى سلوك أيسر السبل إلى قلوب الجماهير التى يكتب لها ... واللغة فى أول الأمر وآخره ماهى إلا أداة مجردة للتعبير . »

ويمضى « تيمور » فى قوله :

« على أن الكاتب المسرحى إذ يؤثر العامية على الفصحى إنما يقوم بتجربة أدبية فى هذا العصر الحائر الذى لم تستقر فيه المذاهب من حيث اللغة ومن حيث المناهج الأدبية ، فهو يلقى بتجربته بين يدى الجمهور ليحكم لها أو عليها . والمستقبل كفيل بإملاء إرادته على العصر الجديد ... »

* * *

و « تيمور » ، على هذا التنوع فى طرق ألوان القصص جميعها ، وقدرته على التعبير بالعامية وبالعربية ، قد اتجه بعد ذلك إلى المسرح ، وكان هذا طبيعيا لشغفه به منذ سنة ١٩١٢ .

وكتب محاولاته الأولى : « أبوشوشة » و « الموكب » و « الصعلوك » ، كتبها بالعامية ثم بالعربية . ثم كتب مسرحيات الحرب : « المخبأ رقم ١٣ »

و « قنابل » ، ثم انتقل إلى الروايات التاريخية العربية : « عوالى » ، « سهاد »، « حواء الخالدة » ، « اليوم خمر » ، « ابن جلا » .

و « ابن جلا » تمثل اللون العربى الإسلامى . وهو لون جديد وصل فيه « تيمور » إلى الجودة المعهودة فى فنه ، والمرتقب أن يخطو فيه خطوات أخرى .

وشخصيات « تيمور » تتميز بالازدواج ... الشخصية الظاهرة المحسوسة التى تعمل فى المحيط العام المتصل بالمنطق والعقل وقيود المجتمع وتقاليده ، والشخصية الأخرى التى تحركها عوامل باطنة خفية تبرق فى سماء العقل الظاهر كالبرق الخاطف . على حد تصوير الأستاذ « زكى طليمات » .

وقصصه المسرحية تتميز بالبساطة الفنية والعمق البالغ والقلق الروحى الحائر ، وهو لا يتكلف ولا يغالى ولا يستجدى تصفيق الجماهير بالعبارات الحماسية أو الحِكَم ، ولا يتملق العواطف بالكلام الجرىء أو المكشوف .

محمود تيمور « الفلاح »

تكاثر الكلام حول «تيمور» وقصصه الريفية، فكان حقا على من يتعرض لدراسة هذه الشخصية الموسوعية أن يُعنى بهذه الناحية . ذلك لأن « تيمور » قد شارك فى القصص الريفى بجهد ضخم غير منكور، حتى يكاد الباحث فى تاريخ القصة الريفية أن يفرده بأروع ألوانها وصورها ولوحاتها. وليس ذلك لنا فحسب، بل إن كتاب الغرب والمعنيين بدراسة القصة فى مصر ودراسة الريف من المستشرقين الباحثين قد جعلوا «تيمور» على رأس القائمة، فترجموا له الكثير من هذا اللون.

وأنا ، منذ عهد باكر، فى صحبة الأدب التيمورى ، قرأت له قصة « رجل رهيب » وبلغ أثرها فى نفسى إلى أبعد الحدود ، إلى الأعماق ، فكنت كلما ذكر أمامى اسم «تيمور» تذكرت على الفور الشيخ « حميده الباز » ، ذلك الرجل الناحل الضامر ، الذى يحمل عينين هما أشبه بجذوتى نار تتوهجان تحت الرماد، والذى يسيطر على الأمن فى القرية سيطرة جبارة عجيبة، والذى أعاد المال المفقود بعد أن ضاع الأمل فى عودته .

حقا ، لقد قرأت هذه القصة منذ سنوات ، وكنت أبدأ المراحل الأولى فى حياتى الأدبية ، ولكننى عندما عدت إليها أمس ، وأنا أحاول إنشاء هذا الفصل ، رأيت هذه القصة تتوهج مرة أخرى فى نفسى وتعيد ذكراها الأولى.

ولا شك أن قصة ما ، تقرأ مرتين بينهما فترة تبلغ سبع سنوات ،

ثم يبقى أثرها فى النفس قائما ، على اختلاف السنين وتنوع اتجاهات الثقافة ، أقول لاشك أن هذا من الأدلة الناصعة على روح الخلود التى ترف حول هذا الأدب .

لقدعشت فى الريف فترة طويلة من حياتى، وعاشرت أهلينا هناك، واضطرتنى أعمالى أن أتصل بالفلاحين اتصالا وثيقا . حتى أتبين قرارة أنفسهم . وكنت أوالى قراءة «تيمور» فى قصصه الريفية المنوعة الكثيرة على هذا الضوء القوى وقد خرجت برأى لا يقبل الاحتمال — عند نفسى على الأقل — هوأن «تيمور» هذا الرجل البارز فى الهيئة الاجتماعية والذى يسكن فى «الزمالك»، والذى هو عضو « المجمع اللغوى » والذى يعيش فى الحضر أغلب أيامه ، ريفى فلاح قُحّ .

وما عليه من ضير أن يقضى أغلب أيامه فى الحضر، وهومرتبط بالأرض فى الريف وبضيعته هناك برباط وثيق .

وإنى أعتقد صادقا بأن صلة « تيمور » بالقرية هى فى الواقع من أقوى الصلات وأنفذها . وهى تتميز من كثير من نواحيها عن صلة بعض من نشأتهم القرية نفسها ، لعدة عوامل وأسباب .

إن الذين ولدوا فى محيط القرية نفسها — عادة — يكونون أضيق الناس بها، وأحرص الناس على الخروج منها متى توفرت لهم أسباب ذلك، فإذا خرجوا منها إلى المدينة ، كرهوا أن يعودوا إليها ، أو يتصلوا بها، فضلا عن أنهم قلما يحملون لها ذكريات طيبة ، أو يكونون حسنى الرأى فى أهلها ، وهم لنشأتهم فى محيطها قلما يتلفتون إلى أحداثها أو عيوبها أو محاسنها ، وقلما تجد إنسانا راضيا عن محيطه ، أو دارسا له .

وفى الناحية الأخرى، ترى أمثال «تيمور» يقبلون على دراسة الريف ومعرفته دراسة الفاحص الباحث، نظرا لأنهم لم يولدوا أو ينشأوا فيه، ولذلك تراهم يقبلون على دراسته بشوق زائد وتلهف كبير، وتلك رغبة كل نفس فيما هى بعيدة عنه.

أضف إلى ذلك أن «تيمور» اتصل بمحيط الفلاحين عن طريق المعاملة، فخبر الكثير مما يحيط بهذه النفوس خبرة عملية خالية من العاطفة التى تحجب بعض الحقائق ...

وقد كلف «تيمور» بالريف منذ صغره ... فهو يقول :

« وكان والدى كثيراً ما يأخذنا إلى الريف فنمضى هناك إجازة الصيف، وكنت أحب الحياة فيه، وأقضى الوقت مع الفلاحين، وأحضر مجتمعاتهم، وأستمع إلى أحاديثهم، وأطرب لأغانيهم، وألعب بالكرة فى بيادرهم، وعرفت هناك فيمن عرفت شخصية طريفة أعجبت بها وهى شخصية « الشيخ جمعة » خفير جرن « الأوسية » الذى كان موضوع أول أقصوصة لى فيما بعد » .

ومن هنا ترى أن هذا الاتصال البعيد المدى القديم فى أيام الطفولة والشباب، قلما يذهب طابعه من النفس أو يضيع أثره . وهو لم يقف عند هذا الحد، بل استمر طويلا وامتد .

وتستطيع أن تتحقق من هذا عندما تقرأ « لتيمور » قصة من قصصه الريفية . ولا شك أنك واجد تلك الأصالة الريفية فى كل حرف وفى كل كلمة وفى كل موقف، وفى أدوات الفن، وفى الحوار .

ويزيدك ثقة بما أقول، أن « تيمور » كتب باللغة العامية الدارجة فى عهده

الأول ، وكان داعية لهذه اللغة ، فإذا قرأت أنت بعض هـذه القصص الآن ، عرفت كيف وصلت قدرة هذا الرجل فى فهم دقائق اللغة العامية التى يتحدث بهاالريفيون فهما وصفه الدكتور «طه حسين» فى كلمته التى قدم بها « تيمور» للمجمع اللغوى بأنه بلغ أقصى حدود القوة والقدرة . ولن تتأتى هذه القدرة فى كتابة الحوار القصصى بالعامية إلا لرجل فلاح ، ولن يستطيع كاتب لم يعرف الريف أن يكتب مثل قصة «رجل رهيب» التى ترى فيها سرائر الحياة الريفيةوبواطنهاوملامحها الكبرىصادقةواضحة جلية، ومثل قصص: «عزرائيل القرية » و « ضريح الأربعين » و « إلى الجنة » و « المزواج » وغيرها .

فإذا أنت تأملت فىهذه الألواح الفنية ، عرفت إلى أىمدىيصل «تيمور» فى تصوير دقائق الحياة والخواطر ، إلى جانبمظاهر الحياة ومعالم العيش .

* * *

ويتصل الحديث عن « تيمور » الفلاح ، بالكلام عن قصصه التى كتبها عن محيط الطبقة الراقية . وبمقارنة هذه القصص التى كتبها عن الفلاحين وعن الطبقة الراقية تتبين مدى إيمان «تيمور» بقضية الفلاح وجهاده فى سبيل العمل لهذه الطبقة المجاهدة. فهو ساخر إلىأبعد السخريةبالطبقة العليا، مصورلأحاسيس هذه الطبقة ، بما عهد فيه من قدرة وأصالة فى فهم الحياة ، والتغلغل فى دقائقها.

ويبين ذلك بقراءة قصصه : « خلف الستار » و « حزنأب » و «حفلة» و « الموكب » و « حفلة شاى » .

ولقد جلست إلى « تيمور » مرات متعددة، ولمست من حديثى معه تلك الروح المحافظة المعتدلة ، المؤمنة الوادعة ، التى لاتميل ولا تزيغ ولا تنحرف .

الواقعية والأخلاقية فى أدب تيمور

يندر فى الواقع أن يجتمع الفن والأخلاق فى شخصية كاتب ما ... فقد عودنا بعض الكتاب الأوربيون أن يصوروا رجل الفن بصورة الإنسان الذى لايقف عند حدود الأخلاق ، ولا يعبأ بالفضائل ، ولا يجعل لشىء ما رقابةً على فنه .

وبذلك هوى هذا اللون من الأدب الأوربى ، فى بعض جوانبه ، تحت عواصف الشهوات والغرائز والآثام والزوايا الحادة ... وأصبح أداة من أدوات إفساد الجماهير والشباب على وجه الخصوص .

ولكن يجىء « محمود تيمور » فيرسم لرجل الفن صورة تصدر من صميم نفسيته المتعالية على الإثم ، الراغبة فى خلق عالم أفضل . فنراه يصور الفن والجمال والحب على أنها معان عالية ممتازة ، فيقول :

«فالفن إذن يرمى إلى الخير . ولا يكون الفن فنا إلا إذا كان الخير وجهته، والفنان لا يكون فنانا إلا إذا كان الخير وحى فنه وغايته» .

ثم يمضى فيقول : «إن النزعة المسيطرة على الوجود هى نزعة الخير ، وإن بذرة الخير أصيلة كامنة فى تلافيف هذا العالم، وهى التى تسير به دائما إلى هدف معيّن ، هو منفعته ورقيه » .

والواقع أن هذا الفهم للفن وهذا الاتجاه الفنى نحو الخير الذى رسمه «تيمور» وسار عليه فعلا ، هو آية الآيات فى تقدير هذا الرجل عندى ، فلا شك أننا نفتقد فى هذا الخضم المضطرب عنصر الفن الأصيل، وألوانه الزاهية وصوره المشرقة التى تهدف إلى إسعاد الإنسانية ، ونقل النـاس من الحلقات الضيقة « البشرية » إلى القمم المثالية العالية .

* * *

إن « تيمور » لا يتقيد بوقت فى كتابته ، ولا بمكان ولا بموعد ، فهو يكتب متى شاء حيث شاء ...

وإنه يكتب فى حالات الصفاء وحدها ، ولذلك فأنت لا تجد فى أدبه ولا قصصه روح السرعة أو الخفة أو الاضطراب التى تفرضها الحضارة الحديثة على الأدب .

بَرِئَ أدب « تيمور » من طريقة « الساندويتش » وظل قويا كاملا ... لا يترخص للجماهير ، ولا يتنزل للشعب ، ولا يستجيب لتلك الأهواء التافهة التى يحرص عليها بعض الـكتاب والصحفيين .

وبقى وعليه سيماء الخلود وملامح القوة والـكمال .

فقد رغب « تيمور » أن يرفع القارئ إليـه ، وأن يمده بذلك الزاد من الخلق والفضيلة ، وكان مثاليا ، وأدبه لا يغرى بفتنة ولا بتمرد ولا بجرأة على حق أو خُلق ، وأبطاله لا يندفعون إلى غريزة أو شهوة ، إلا بقدر ما تتمثل الأجواء من حولهم منـكرة لهم .

وهذه هى « أخلاقية الفن » التى تميز بها « تيمور » ، وتميز بها أدبه .

وهى إحدى آيات الخلود فى فن هذا الكاتب التى ستظل تشع النور ، فلا تخبو أبدا ...

يؤمن « تيمور » بمذهب التربية بالقصص ... وفى قصصه صور واضحة للإيمان بالفضيلة وإيثار الخير .

إنه يؤمن بأن القصة تستطيع أن تهـدى إلى الخير ، أكثر مما تهدى القوانين الجامدة ، أو المواعظ والألفاظ الجافة .

وفى صحيفة ١٠٨ من كتابه « فن القصص » يقول :

« والقصص الإنسانى هو المنبع الصالح لكل من يغترف منه فى مختلف مراحل العمر ، وهو نعم المؤدب لمن يلتمس فيه جوهر الأدب ولباب التهذيب »

ولعل هذا هو اللون المتميز « لأدب تيمور » ، فهو يؤمن بأخلاقية الفن أعمق الإيمان ، ويرى الحياة الفنية فى صورة الخير والجمال ، ويرسم أبطال شخصياته على نسق من السمو ، ويهدف بمعالم قصته وحوارها ومراميها إلى ذلك اللون الكريم من توجيه المجتمع الوجهة الفضلى .

وحياة « تيمور » تنطبق تماما على فنه ، وتتمشى ظواهره مع خوافيه . فهو رجل أخلاق ومثالية ، يؤمن بالفن ، ولكنه لا يتجه فيه ذلك الاتجاه المنحرف الذى أغرم به بعض المقلدين من بوهيمية أو إغراب أو ذهاب مع الوهم .

وهو يجمع بين الواقعية والأخلاقية ، مستمدا ذلك من طبيعته الصافية الهادئة النقية !

فيتمثل فى لوحاته : الصدق الفنى ، والاتجاه الحميد .

و « تيمور » يرى فى هذا الشأن رأيا ... يرى أن المؤلف ذو شخصيتين تـكاد إحداها تنفصل عن الأخرى :

« الأولى شخصية الملهَم الموهوب، وهى لاتتوضح إلا فى حالة الاستيحاء. وقديماً علل العرب ذلك بأن لـكل شاعر شيطانا يوحى إليه طريف المعـانى ومحكم القوافى ، وما الشيطان فى الحق إلا تلك الحالة النفسية التى يتلبس بها الـكاتب حين يعالج موضوعه ، فيسمو إلى أفق بعيد يدق فيه إحساسه ويرهف شعوره وتستنير بصيرته ، فتتجلى له حقائق الأمور ، وتنكشف طوايا القلوب ، فالقصصى مثلا ينشىء عوالم مستقلة بأشخاصها ومظاهر وجودها ثم يعالج الحياة فيها ، ويحرك الأشخاص على النظام الطبيعى ، ويدع للغرائز أن تسيطر وللعقول الباطنة أن تحسر اللثام ، ولابد ـ لإجراء هذا على الوجه الصحيح ـ من أن تجتمع للـكاتب قدرة الإحياء ، ومن ثَمَّ يكون أهلا لمـا أغدقه عليه القارىء من نبوغ وامتياز .

فأما الشخصية الأخرى للمؤلف فشخصيته العادية حين يخرج من بيئة الإلهام ، ويمضى لطِيَّته تهيمن عليـه نزعاته الذاتية وتسيره أهواؤه النفسية ، وهو فى هذه الحالة رجل عادى أو أقل من العادى . ولا غرو أن يكون المؤلف كذلك ، فإنه إنسان له مؤثرات بيئته وله نزواته ، فـكيف لا تصدر عنـه الهنات الإنسانية التى تصدر عن عامة الناس ؟

إن المؤلف على الصورة التى تزينه بهـا مؤلفاته ، محدود بساعات إلهامه وأوقات تفكيره ، فإذا نزعت القلم من بين أنامله ، ونحيته عن مهابط وحيه ، عاد شخصاً كسائر الأشخاص . »

ولعلنى أستطيع أن أقول إن هذا الرأى على ما فيه من تواضع لا يتناقض مع ماذهبنا إليه من ارتباط أخلاقية الفن فى أدب « تيمور » بالسمو الشخصى فى خلقه كفنان .

ولقد كنت أريد أن أقول إن « تيمور » يخدم المجتمع عن طريق القصة ، ولـكنى خشيت أن يفهم هذا القول على غير وجهه . ويقول بعض الناس إنما أعنى بذلك أن « تيمور » يعالج مشكلات « المناسبة » التى تنتهى القيم الفنية للقصة بانتهائها ، ولـكنى أعنى أنه يعالج المشاكل الإنسانية المعقـدة ، القائمة منذ الأزل ، والتى ستظل قائمة فى كل جيل وعصر ومجتمع .

* * *

و « تيمور » يؤمن بأثر القصص فى تربيـة الشعب ، على اعتبار أنها : الوسيلة الصالحة فى بلوغ هدف الهداية والوعظ ونصرة مكارم الأخلاق عن طريق غيرمباشر ، دون استخدام الحض الصريح أو التنفير المـكشوف :

« فالقصة الفنية تصاغ حوادثها على نحو يكفل التسلية ، ويجرى كل شىء فيها مستورا تحسه ولا تراه ، وهى بعرضها مشهدا من مشاهد الحياة كما يكون فى الواقع ، إنما تتيح لنا أن نتأمل فى صحائف حياتنا : نسخر من غباوة الغبى ، ونضحك من جهالة الجاهل ، ونتحرر من مزالق الرذيلة . وهـذه الوسيلة فى العرض والتعبير ، تفعل فى النفس أكثر من الوعظ المباشر ، لأنها تتسرب إلى الحس من غير استئذان أو تنبيه . والإنسان فى قرارة غريزته لا يميل كل الميل إلى مايذكره بضعفه ، وما يدله دلالة صريحة على انحرافه عن جادة الحق. فإن قالوا لا تفعل فى أمر ومجاهرةٍ ازداد هو من غير وعىٍ صلابةً وإصراراً

ليحافظ على استقلال شخصيته ، ولأن كل ممنوع إلى النفس حبيب .

والقصّاص يتخذ من الوسائل فى عرضه ومعالجته ما يدع الآذان مصغية إلى ما يقول ، إذ أنه يضفى على القصة خيالا ممزوجا بحوادث من الواقع ممتعة تتخللها مشوقات خلابة ، فلا يلبث ذلك أن يبعث فى نفس المطالع نشوة تجعله يتابع القصة بعينه ، ويسايرها برأيه وتأثره . »

وهكذا يؤكد « تيمور » اتجاهه الناصع ، إلى « أخلاقية الفن » ويعمل له فى وضوح . وهـذه النقطة بالذات تعد المحور الأكبر الذى يقوم عليه فن « تيمور » الإنسانى .

* * *

ويمضى « تيمور » فيتحدث عن نصيب القصص من مشكلات المجتمع :

« بعض الناس يظنون أن القصصى أو الأديب على وجه عام يملك أن يؤثر فى المجتمع الذى يعيش فيـه بأن يؤجج ثورة مثلا ، أو ينشىء مذهبا أية كانت غايته . وبعبارة أخرى ، يكون له تأثير إيجابى فى البيئة التى يحيا فيها .

وعندى أن الرأى الراجح فى هـذه الناحية هو أن القاصّ الموهوب بحسه المرهف ويقظته الحادة فى الشعور بأدق الخلجات التى تسرى فى المجتمع — قادر على أن يقتنص الخفى العميق الـكامن فى واعية الجمهور ، فلا يلبث أن يعبر عنه أى يجعله مادة مكتوبة ، وقد يكون فيما يزاول من ذلك مدفوعا بعامل لاشعورى تخفى عليه ملامحه ، فهو يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فيترجم عن هذا التأثر قبل أن يحسه سواه فى عمل قصصى .

ولا ننسى مع هذا أن بعض قصّاصينا الفنيين لم يفتهم تسجيل ظواهر

التذمر أو النشاط الحيوى ، ولم يهملوا عرض أشتات الأمراض الاجتماعية التى يعانيها الشعب ، ولكننا نرجو أن تقوى فى الأمة روح الطموح إلى ما هو الأعلى ، وأن تحتدم بين جوانحها الآمال والرغبات ، فيعظم اهتمام الفنانين بالتعبير عن مشاعر الأمة فى صياغتهم الفنية ، ويكون للقصصيين فى ذلك نصيبهم الوافر . »

وأنت من هذه الكلمات التى نقلتها لك عن « تيمور » ، تراه وقد فهم الفن على وجهه الأسمى ، وعمل له فى محيطه الأوسع ... ورغب بالفن إلى أن يكون ميدانا كبيرا للتأثير الإيجابى فى البيئة التى يحيا فيها الفنان ، فيتصور أدق الخلجات التى تسرى فى المجتمع ، رغبة فى عرض أشتات الأمراض الاجتماعية التى يعانيها الشعب .

وهكذا تتجلى بوضوح الرسالة الفنية المتصلة بالمجتمع أوثق اتصال ، والتى تهدف إلى أخلاقية الفن وواقعية الفن .

ويتصل بهذا أمر آخر لابد من أن نعرض له فى هذا المجال : هل هذا الاتجاه الذى يهدف إليه « تيمور » يمكن أن يقال عنه إنه تقصير فى حق الفن الذى يرى بعض أصحاب المذاهب أنه للفن وحده ؟

وهل معنى استيعاب المشاكل الإنسانية الكبرى فى محيط المجتمع وتضمينها للقصص الفنى ، أن ذلك مجافاة لروح الفن الصميم ؟

لندع « تيمور » نفسه يحدثنا عن هذا الأمر :

« ثارت بين أدباء القصة عجاجة الخلاف حول هذه الدعوة وانقسموا فريقين : فريقا يجأر بأن الفن للفن فمحال أن يذعن للتقاليد والأوضاع أيا كان مصدرها ،

عابرة كانت أو مستقرة ، ومحال أن يخضع لمطالب ترسم له وتفرض عليه مهما يكن من شرف هذه المطالب وصلتها بالحياة الاجتماعية. وفريقا يجهر بأن « الفن للمجتمع » فمن حق المجتمع عليه أن يجنده كما يجند سائر القوى الحيوية فى سبيل الصالح القومى ولوجهة الخير العام، ومن واجب الفن أن يسهم بنصيبه فى علاج أدواء المجتمع وإمداده بوسائل النهوض والمضى إلى الأمام .

وعندى أن كلا الفريقين يفصل بين الفن والمجتمع فصلا واضح العلائم ، فيثير نزاعا ليس له فى حقيقة الأمر من ثمر . ذلك لأن الفن الأصيل هو غرس البيئة ونبت الحياة ، أعنى أنه وليد المجتمع وقلبه الخفاق وروحه الوامضة وإحساسه المتوهج وانتفاضته الشاعرة ، فيه تتجمع أخفى الخوالج لهذا المجتمع بما يحويه من آمال وآلام .

فالفنان إن أخلص لفنه واستصفى شعوره استجاب حتما لما يحيط به من مختلف البواعث والمؤثرات ، فيصدق تعبيره عن البيئة والمجتمع فى الصورة التى تسخو بها موهبته ، غير محدودة حريته أو مسلوبة طلاقته، وغير مكره ولا ملزم بتقاليد وأوضاع يعمل وراء أسوارها فى عبودية واعتقال .

أما إذا أقحم الكاتب فنه إقحاما للإشادة بفكرة ، أو التغنى بدعوة ، مسوقا إلى ذلك بغرض من الأغراض، أو مخدوعا بتوجيه من التوجيهات ، دون أن يستجيب شعوره استجابة حقة لتلك الفكرة أو الدعوة التى يتخذها محورا للإشادة أو التغنى ، فإن فنه فى هذه الحالة يخونه لا محالة ، وإنه ليتمخض عن أباطيل لا يخفى تلفيقها على الناقد البصير .

والمجتمع لا تقوم دعائمه ولا تبقى إذا كانت لبناتها مصنوعة من خداع وزور!

فالفن للفن ، والفن للمجتمع ، يترادفان مادام الفنان صادق الوحى، صحيح الإلهام .

على أن الفن يمكن أن يكون مجندا فى خدمة المجتمع، دون عدوان على حريته ودون تصفيد لخطاه ، وذلك باستخدام ماتجود به القرائح الطليقة فيما تصلح له من أغراض وغايات » .

* * *

وقد بقى بعد هذا أن نقول إن الواقعية فى أدب « تيمور » ليست هى سمة أدبه على وجه عام ، ولكنها صفة لبعض آثاره وإنتاجه متميزة واضحة .

صحيح أنه كان فى أول إنتاجه الأدبى واقعيا صرفا ، وصحيح أنه بعد أن علت به السن ، وتوسع اتجاهه ، وتنوعت دراساته ، وتفتحت آفاق أدبه ، أوغل فى ألوان مختلفة من الرمزية والتصورية والتحليلية . وذلك شأن كل قصصى ينحو منحى إنسانيا خالصا .

ولكنى أريد أن أقول إن هذه الواقعية تكاد تكون لونا ثانيا من ألوان أدبه على نحو من الأنحاء .

فواقعية «تيمور» القائمة التى لاتبارحه هى القدرة على إنطاق الأشخاص بما يقولون ... على وجه فيه من الصدق والدقة الشىء الكبير . وهذه الواقعية فى طبيعة المناظر والبعد عن المبالغة والمحافظة على الروح الفنية والحوار ، بحيث تمضى معه فلا تضيق به ولا تتململ، ولا تجد مايشعرك بأنك خرجت عن الجو الفنى لحظة واحدة .

فموهبة الحوار عند «تيمور» من آيات فنه السامقة ، والأصالة فى تصوير الجو الشرقى والروح المصرية من مواهبه المفردة .

فهو قدير على إحاطة أبطاله بجو فيه صدق وواقعية ... كما أنه يرسمهم بحيث تبدو طبائعهم وسرائرهم وشمائلهم على نحو من الواقعية الرائعة .

وتستطيع أن تقول وأنت صادق إن أدب « تيمور » يأخذ مادته من أعماق النفس وأغوار الحياة ...

فلا بهرجة ولا تكلف ، ولا نقل من الأدب الأوربى ، ولا تمرد ولا إغراء ولا استجداء للتصفيق ، ولا جرى مع هوى القارئ ... بل هو السمو بالقارئ إلى الفن الرفيع .

الحيـاة من وراء منظار تيمور

لا يضع « تيمور » على عينيه منظاراً أسود حين ينظر إلى الحياة ، أو حين يرسم الحياة ، بل على عكس ذلك إطلاقا .. تراه مشرق النظرة ، يتوسم فى الحياة الضياء والنور والطلاقة ، ويرى أبهى جوانب الحياة الحب والجمال . ولا يلبث أن يقول: « إن النزعة المسيطرة على الوجود هى النزعة الخيِّرة ، وإن بذرة الخير أصيلة كامنة فى تلافيف هـذا العالم ، وهى التى تسير به دائما إلى هدف معين هو منفعته ورقيه ، وبذرة الخير هى موجودة فى كل الـكائنات صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها .. فهذه الذرات التى يتكوّن منها جميع ما فى العالم من كائنات مكوّنة من كهارب يسير بعضها حول بعض ، وتسير حول نفسها فى حركات هى أوفى ما وصل إليه النظام والتناسق ، أى أرقى ما وصل إليه « الجمـال » . وهى فى حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية ، أى بقوة « الحب » ... »

ولولا أننى اتصلت « بتيمور » بضع مرات وجلست إليه ، خلال العـام الماضى ، وعرفت بعض آلامه الشخصية ، لظننت أن « تيمور » هذا من الذين يسيمون سرح اللهو .

فهو فى أسلوبه رشيق أنيق ، يفيض إشراقا وتألقا يزرى بإشراق شباب الرابعة والعشرين !

ولـكنها هى النفس الشاعرة الهادئة التى تستشعر جمال الـكون ، والتى يهمها أن ترشف من عبير الوجود ، والتى تنتقل بين بلاد هذا الـكوكب غير مستقرة ، كأنما هى هائمة .

الحيـاة من وراء منظار « تيمور » جميلة ممتعة ، تقوم على الحب والخير والجمال ، وهو أبعد الناس عن الخصومة والحقد ، وأكرههم للظلم والافتيات ، وأبعدهم عن الجور والحسد .

* * *

ومن هـذه المقالات والشذرات التى احتواها كتاب « عطر ودخان » وكتاب « شفاء الروح » تتجلى شخصية « محمود تيمور » وتبدو ملامحه ، وتتكشف طواياه ، فيبدو أمامك فى صورة الرجل الكامل الخلق ، السامى العاطفة ، النبيل ، العزوف عن الشر والخصومة والتهريج . فإذا مضيت معه رأيت هذا الخلق يتجلى فى فنه بوضوح ، ويبدو فى آثاره بصراحة .

فهو كاتب لايحب التميع ولا التعالى ، ولا يجنح إلى الإغراق أو الإسراف أو التطرف ، تبدو معالم الاعتدال واضحة فى شخصيته وآرائه .

فهو بشأن المرأة يؤمن بمكانها الحق فى الأسرة ، ويرى أنها جديرة بأن تعنى بأنوثتها ، ويكره للرجل أن تتخلف عنه مظاهر الرجولة .

وهو يكره المرض ويخشاه، حتى إنه يراه الخصم الأوحد الجدير بالاحترام، وهو الذى يحسب حسابه عندما يأخذ فى العمل الأدبى ، فيضع بجواره القوارير قبل أن يتهيأ للكتابة !..

فإذا ذهبت تبحث عنه فى معترك الحياة وجدته قوى العارضة ، يأبى البكاء ، وينفر من الدعة ، ويكره الركون إلى متاع ، ويحتقر طلاب خاتم « سليمان » ، أو الراغبين فى المال بغير كفاح ...

وتراه يستقبل هزائم الحيـاة رَضِيَّ النفس ، رحب الصدر ، قويّ الإيمان بالله ، لا يضيق بها ولا يتزعزع .

وهو فى مجموع ما أُثِرَ عنه من سمات وملامح وشمائل رجل مثل عليا يحب زمهرير الحياة ، ويغرم بالصحراء ، ويحب الأجواء الهادئة الساكنة التى تعيش على الإنتاج ، ويذهب فى البلاد طولا وعرضا ، يستقصى ويبحث ويتصفح الوجوه ... ويرى جمال الكون عند بحيرة « ليمان » ، وشامخات العمائر وناطحات السحاب فى « نيويورك » ، وعند شلالات « نياجرا » ، وجبال « الألب » ، وصخور « لبنان » ، فهو مطبوع على السياحة والرحلة .

فإذا ذهبت إلى منزل وحيه أو صومعته طالعتك التماثيل الثلاثة التى استوحى منها قصصه : « فرعون الصغير » ، « بنت الشيطان » ، « إحسان لله » ... وهو مُعْجَب بهذه التماثيل مشغوف بها ، وهو يربط قلمه وفنه بوشائج حريرية حين يقول: « ربما كان قلم الكاتب أيسر مثل نضربه ، فيه يتبدى ذلك الضرب من إحساس الفنان بالجماد ، فقد تتوثق الألفة بين الكاتب وقلمه فلا يبغى بديلا به ، وإن بَلِىَ فى يده . »

فإذا ذهبت تقلب إنتاج « تيمور » وآثاره طالعَتْكَ مسحة من الصفاء والطهر والعزوف عن الإثم ... فإن « تيمور » لا يجنح إلى إرضاء الغرائز ولا استجداء التصفيق .

وتبدو حياة « تيمور » هادئة ليس فيها مغامرات ولا « مَطَبَّات » ولكنها لا تخلو من أحداث .

وهو رجل قد امتحنته الأقدار ، ففجعتْه فى ولده الذى لا يحب هو أن يسميه ، ونحن من جانبنا نستجيب لرغبته ونمضى معها .

وقد كان ذلك طبيعيا ، فالأقدار ماضية ، والرجل عميق الإيمان بالله ، ولن

تدع الدنيا إنسانا يستشعر كل معانى الجمال والنعمة فى الحياة دون أن تسوق إليه محنة ... وقد كان !

ولكن « تيمور » قد صمد ، وقابل قضاء الله بصبر عجيب ، وكان من آثار هذا المصاب ، كتابه الخالد : « أبو الهول يطير »

فأنت حين تمضى فى هذا الكتاب ترى « تيمور » وقد أطلق نفسه من كل قيد ، وأخذ يصور آلامه فى حنان بالغ .

وهكذا تعود محنة الكاتب وآلامه على الفن بخير كثير ، فيكتب الفنان أو الشاعر أو القصصىّ أروع آثاره .

فى هذه الصورة التى يعرضها « تيمور » صوفيةٌ حلوة رائعة ، فيها وضوح وفيها صراحة وفيها إيمان ، كشأن « تيمور » دائما فى تصوير مشاعره وأحاسيسه ، وقد صدر بهذه الصورة كتابه « أبو الهول يطير » ...

وإنك لتطالع هذه اللوحات الحزينة من أدب « تيمور » بعد فقد ابنه لترى أن الحزن والألم لم يزد الرجل إلا فنا وقوة وقدرة على الإنتاج !

بعض الناس تعترض طريقهم حادثة ما ، فتحول اتجاههم ، وتحطم عزائمهم ، وتزلزل نفوسهم . ولكن بعضهم الآخر ، تزيده الحادثة قوة وصلابة ، وتزيد أدبه جمالا وروعة ، وتكشف مثل هذه الحادثة الضخمة القوية الأثر فى حياة « تيمور » عن هذا المعدن الأصيل من الرجولة التى تحزن ولا تتزعزع ، وتبكى فى أعماقها ولكنها لا تقطر الدمع ؛ الرجولة المؤمنة التى تستلهم آلامها فنا جديداً ...

وهكذا يكتب « تيمور » : « صحبة الورد » فى « سويسرا » ، و « أبو الهول يطير » فى « نيويورك » ، و « نداء المجهول » فى « لبنان »...

فى كل أرض وحى ، ومن كل مرحلة من مراحل العمر أثر ...
هكذا الفنان الأصيل !

تتـــويج شعبى

وبعد ، فهذه فصول سريعة أردنا منها إبراز شخصية « محمود تيمور » من أدبه وآثاره على الطريقة السيكولوجية الحديثة . وهى ليست كل ما أردنا أن نقوله ، فإن « أدب تيمور » موسوعىّ بطبعه ، وقد بلغ إنتاجه عددا ضخما من الـكتب والمؤلفات .

وقد ظفر « تيمور بك » بتـكريم دوائر الآداب العالمية والمصرية جميعا ، فـكتب عنه كبار المستشرقين، وترجمت آثاره إلى الألمانية والفرنسية والإنجليزية وتوّج « مجمع فؤاد الأول للغة العربيـة » إنتاجه القصصى ، واختير عضواً فى هذا المجمع منذ عامين ، وفاز بجائزة الملك فؤاد الأول للآداب هـذا العام ، وفازت مجموعة قصصية له فى اللغة الفرنسية بجائزة « واصف غالى باشا » التى تمنحها هيئة التحكيم فى جمعية « فرنسا ــ مصر » .

وما أحق « تيمور » مع هذا أن يتوّج من الناحية الشعبية ، وأن يكتب عنه نقّاد وكتّاب ، ليسوا فى الصفوف الأولى من الـكتّاب أو من الشهرة ، فيكون بذلك قد فاز بالتقدير الرسمى والشعبى معا .

ولست أغالى حين أرانى أضع تاج التقدير الأدبى على مفرق هذا الـكاتب الفنان ، لتفرغى لدراسته ، واستقصاء فنــه وألوان أدبه ، فقد أدى للعربية واجبا كبيرا ، وأمد الفن القصصى العربى بذلك الإنتاج الوافر الخصيب .

نسأل الله أن ينسىء فى أجله ، حتى يتم رسالته على الوجه الذى يرضاه أحباؤه والمعجبون به .

أحدث مؤلفات

محمود تيمور

مجموعات قصصية :

كل عام وأنتم بخير
إحسان لله
خلف اللثام
شفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قال الراوى
شباب وغانيات .

قصص مطولة :

كليو باترة فى خان الخليلى
سلوى فى مهب الريح
نداء المجهول .

قصص تمثيلية :

ابن جلا
فداء
اليوم خمر
حواء الخالدة
المخبأ رقم ١٣
سهاد
المنقذة
عوالى
قنابل
أبو شوشة والموكب .

صور وخواطر :

شفاء الروح
ملامح وغضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص
ضبط الكتابة العربية .

فهرس

تصدير : صفحة

تتـويج ٣

كلمة لمعالى وزير المعارف ٤

أرستقراطى فلاح : ٥

للمستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكى

أستاذ الأدب القومى :

للمستشرق عبد الـكريم جرمانوس ١٩

قصة « محمود تيمور » :

١ — الأدب العربى فى نصف قرن ٣٥

٢ — أثر الأسرة التيمورية فى الأدب العربى ٤٧

٣ — الرحالة ٥٣

٤ — مفتاح شخصيته ٦٣

٥ — ريشة تيمور ٧١

٦ — فى صحبة تيمور ٨١

٧ — منـازل الوحى ٩٣

٨ — من القصة إلى المسرحية ١٠١

٩ — محمود تيمور الفلاح ١٠٧

١٠ — الواقعية والأخلاقية فى أدب تيمور ١١١

١١ — الحياة من وراء منظار تيمور ١٢١

١٢ — تتويج شعبى ١٢٥

مؤلفات أنور الجندى

العرائس البكارى (تحت الطبع)

فى موعد الذكرى

النهضة النسائية فى الميزان

كتّابنا المعاصرون

جـولات
